تولستوى

٥٤

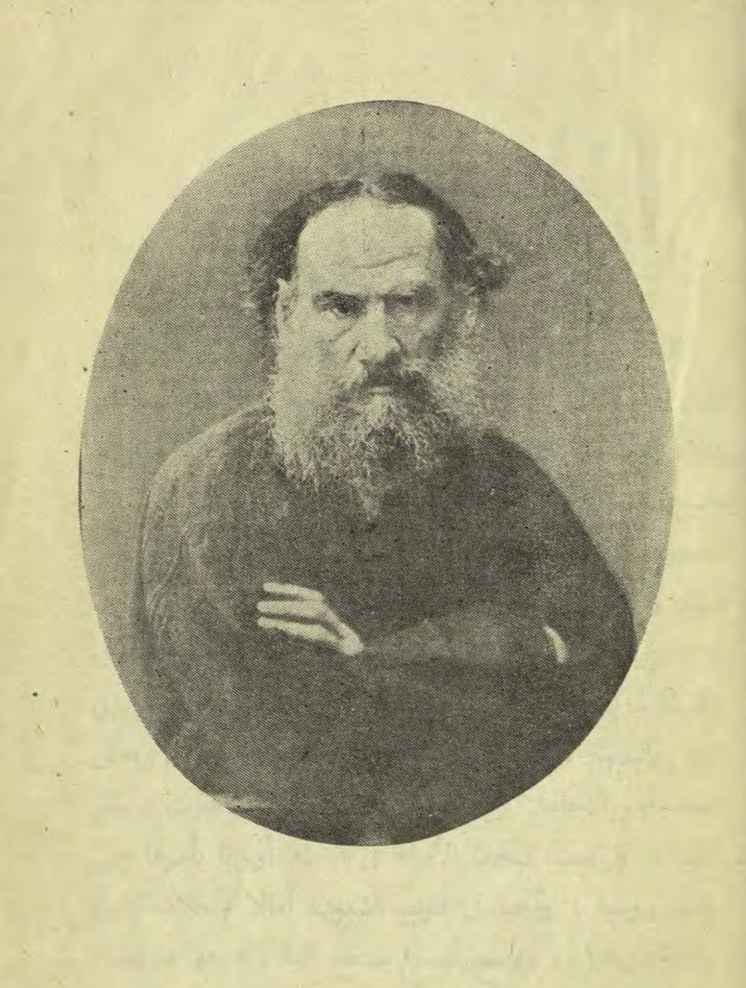
اقرأ

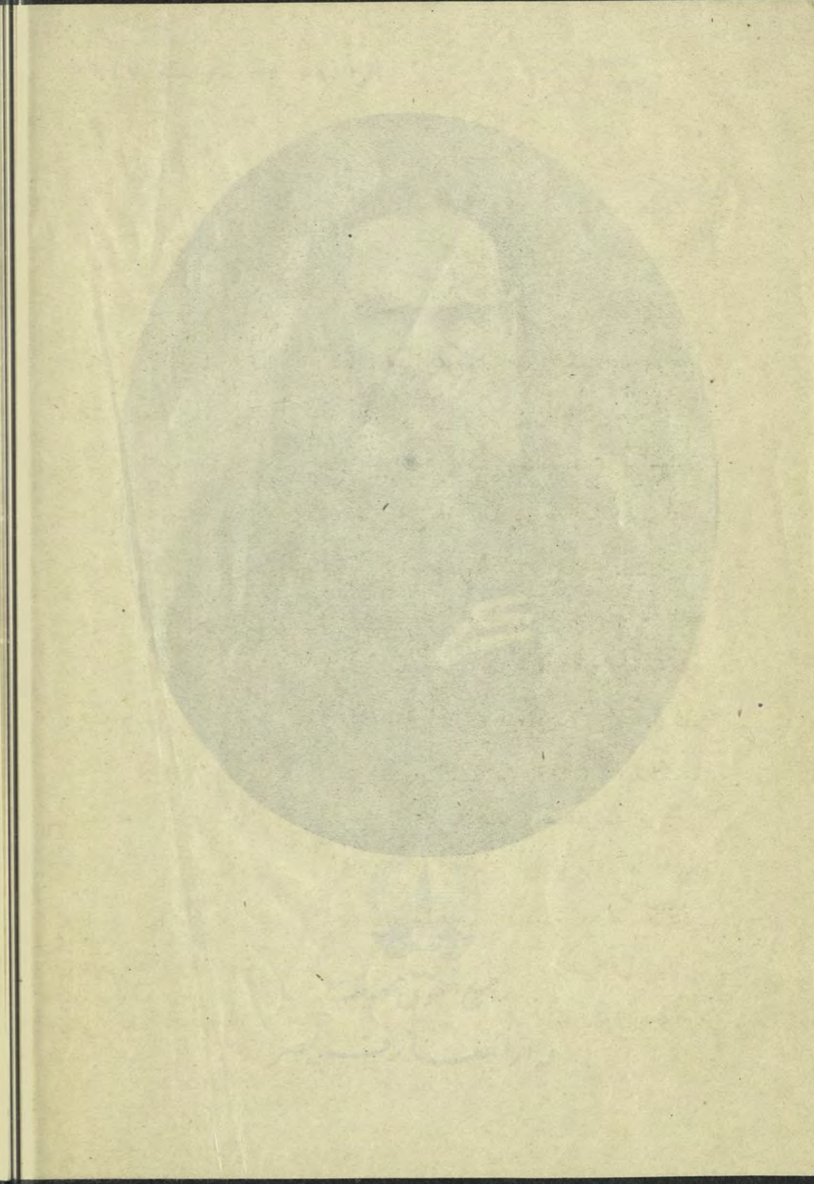
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٥٤ — مايو سنة ١٩٤٧









١

نبلاء وغير نبلاء

كانت روسيا فى الربع الأول من القرن التاسع عشر خير موطن لتلك الطبقة المميزة من بنى البشر التى تعرف بالنبلاء . وكان هؤلاء النبلاء فى تلك الأرض الواسعة أكثر اطمئناناً على أموالهم وضياعهم من أمثالهم فى أى ركن من أركان أوربا القديمة . لقد عصفت بفرنسا ريح الثورة ، فاقتلعت هؤلاء السادة وخسروا أموالهم وأراضيهم ، وأضاعوا رءوسهم على المقصلة ، ثم قام نابليون ابن الثورة ، ويرى بعض الناس أنه أعاد تلك الطبقة ، ولكنه فى الحقيقة لم يفعل ، بل أوجد طبقة أخرى ترتكن فى ميزتها إلى العمل والبطولة ، لا إلى الميراث من جد قديم ، وقام بحروبه فى أنحاء أوربا حاملا ريح الثورة والحرية معه ، فاهتزت عروش الملوك ، وترنحت تيجان الأمراء فى أنحاء أوربا بأسرها حتى حدود روسيا ، وأحيا فى قلوب الشعوب أمالا وأحلاماً كانت هاجعة من قبل ، ووضع أسساً لم يستطع النبلاء هدمها فيما بعد . على أن نابليون وإن استطاع أن يحرك مشاعر الشعوب فى غرب

أوربا ، لم يستطع عند ما اجتاح أرض روسيا أن يبذر فى الروسيين بذوراً ، ذلك لأن مركز العرش المؤيد من النبلاء والكنيسة كان وطيداً . أما الشعب فكان مصفداً فى الأغلال إلى درجة أنه لو رفع القيد من قدميه لوقف مبهوتا لا يستطيع السير ، وإذا هو يتناول القيد ويعيده إلى مكانه .

إذن نابليون لم يحمل رسالة فى زحفه إلى موسكو ، أو هو حملها ولكن الشعب الروسى لم يتلقها . وكان الجنود الذين يساقون أفواجاً لمقاتلة جيش نابليون العظيم لا يشعرون إلا بأنهم يدافعون عن أرض القيصر والكنيسة المقدسة . وتقدم نابليون فى تلك البلاد المترامية منتصراً فى كل مكان بفنه الحربى العظيم ، ونظام جنوده . وكان الغرض الذى يسعى إليه يلوح لناظريه ، ولكنه ظل دائما بعيداً كالسراب ، فما هو غرضه ؟ أن يهزم الجيش الروسى ويخضع روسيا لإرادته ؟ أن يستولى على موارد روسيا وخيراتها الكبيرة ؟ أن يحمل عرضاً رسالة الثورة ويوقظ ذلك المارد النعسان؟ أم هو يرغب فى كل هذا ، وفوق هذا ، أن يكون له فخر السيطرة على أوربا بأسرها وما يتبع ذلك من مجد خالد ؟ إنه يتقدم بجيوشه ظافراً، ولكن فى بلاد هجرها أهلها فهو لا يكاد يجد من الأقوات ما يكفى جيشه ، وتنضم الطبيعة إلى أعدائه وذلك البرد القارس ينقض عليه ، فاذا جيشه يتضاءل ويتمزق . ويدخل

موسكو العاصمة الروسية بقبابها اللامعة ، فاذا المدينة خاوية هجرها أهلها بعد أن أشعلوا بها النيران . فأين إذن تلك الجيوش التى يريد دحرها ؟ وأين إذن ذاك الشعب الذى يريد إبلاغه رسالته ؟ ليس أمامه إلا أن يتقهقر بجيشه قبل أن تصبح هذه البلاد الغريبة مقبرة له ولهذا الجيش . وهو يتقهقر وسط الغابات الموحشة ، والأراضى القاحلة ، والعدو يلاحقه وينقض عليه كلما لاحت الفرصة ثم يختفى ، والبرد والجوع يلاحقانه ولا يختفيان . فاذا جلا جيش نابليون العظيم عن أرض روسيا لم يكن إلا فلولا ، وإذا هذه الحملة الخائبة تمكن خصومه من القضاء عليه .

فى نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر أخلدت روسيا مرة ثانية إلى سكينتها وإلى نظامها القائم المتين الذى يرأسه القيصر مؤيداً من الكنيسة والنبلاء . أما عامة الشعب فتتألف من السواد الأعظم من الفلاحين الذين لم يكونوا فى الحقيقة إلا أرقاء ؛ إذ هم جزء من الأرض التى ولدوا فيها لا يستطيعون أن ينزحوا عنها إلا بإذن السيد ، وهم يباعون مع الأرض فيرتفع ثمنها إذا كثروا ، وهم خاضعون لمخدومهم فى أموالهم ، بل فى نفوسهم . أجل هنالك قوانين تحرم على السيد أن يسىء معاملة تابعيه ، وتحرم توقيع العقوبة البدنية التى سمحت له بها القوانين من قبل ، غير أن السلطات لم تكن لتعاقب السيد إذا أقدم على إيذاء تابعه ؛ بل حدث أن أقدم

بعض السادة تحت تأثير الخمر أو فى ثورة الغضب على قتل رجالهم ، فلم تقتص منهم ما يسمونها العدالة ، ولم يوقع عليهم قصاص من يزهق الأرواح .

تلك حال السواد الأعظم من الشعب الروسى ، هم عبيد ولكنهم شر من العبيد ؛ لأن العبيد يختلفون عادة فى الجنس أو الوطن عن سادتهم ، أما هولاء فهم من جنس السادة وأبناء وطنهم .

أما السادة فقوم يشبهون أمثالهم فى البلاد الأوربية الأخرى فى أشياء ، ويفترقون عنهم فى أشياء . حاول بطرس الأكبر فى القرن السابع عشر أن يصبغ نبلاءه بصبغة المدنية الأوربية ، فهو يدعوهم إلى حلق لحاهم وارتداء الملابس الأوربية بدلا من « القفطان » ، ونجح إلى حد كبير فى تغيير المظهر ، ولكن هل نجح فى تغيير النفوس ؟ وفى عهد كاترين العظيمة فى القرن الثامن عشر اتسع ملك روسيا ، وتثقف النبلاء بثقافة الغرب ، وصارت الكلمة العليا للغة الفرنسية والأزياء الفرنسية . فالبلاط الروسى يتخذ بلاط فرساى نموذجاً والنبلاء يظهرون احتقارهم للغة الروسية فلا يتكلمون ولا يكتبون إلا الفرنسية ولا تلذ لهم إلا قراءة المؤلفات الفرنسية ، ولكن هل تغيرت نفوسهم مع ذلك ؟ وفى أوائل القرن التاسع عشر اشتبكت روسيا فى حروب عدة وخطيرة ، منها غزو نابليون ، الذى ذكرناه ، ومنها حروب تركيا ؛ طهرت هذه الحروب قلوب

النبلاء وأخذوا يفكرون لوطنهم ، فوجدت النزعات السلافية ، ووجدت النزعات المقاومة لها التى تنادى بالاتجاه نحو الغرب. وفى هذا وذاك عاش النبلاء مقلدين أوربا فى مظهرهم لا سيما إذا كانوا من سكان العاصمة أو من سكان موسكو. أما أعيان الريف ذوو الأملاك الشاسعة فانهم يعيشون فى دورهم الواسعة التى شيدوها على الطراز الفرنسى أحياناً ، أو شيدت على النظام الروسى القديم وهى دور واسعة الأرجاء تتسع لما يحتاجون إليه من خدم كثيرين ومن ضيوف يفدون عليهم وهى دور خالية مما عرفه الغرب حينذاك من وسائل الراحة والترف. وكان السيد من هؤلاء النبلاء يفضل عيشة الريف على حياة المدن ؛ إذ يستطيع ألا يتكلف من المظهر ما تحتمه عليه الحياة الاجتماعية فى المدن بل يعيش كأنه أحد فلاحيه ، غير أنه مالك لأقوات هؤلاء الفلاحين ، بل لحياتهم . ولكن هل تغيرت نفوسهم ؟

الغريب فى أمر هؤلاء النبلاء أنهم كانوا يجنحون إلى الأفكار المتطرفة . ومن المعروف فى ذلك العهد أن فولتير كان أحب الكتاب الفرنسيين إليهم ، ولو أن مبادئ فولتير طبقت عندئذ فى روسيا المقدسة ، أو لو أن آراءه وصلت إلى أتباعهم ، لهبت العاصفة وحرقتهم تحريقا .

وإنه لمن الظواهر التى تعد من مضحكات القدر أن

ينشر فولتير فى القرن الثامن عشر آراءه فتتغلغل فى الشعب الفرنسى وتهزه هزاً وتكون من عوامل الثورة الفرنسية التى قضت على النبلاء ، وأن يتخذ نبلاء القيصرة كاترين ثم من بعدهم نبلاء اسكندر الثانى ونقولا الأول من آراء هذا الكاتب الفرنسى ملهاة يقطعون بها أوقاتهم ويتحدثون بها بين الكؤوس .

هذه صورة من حياة النبلاء الروس ، أحب الأحاديث إليهم ربما كانت أحاديث الثورات والانقلابات ، وأبعد ما يفكرون فيه أن تقوم مثل هذه الثورة ، وأن تحدث مثل هذه الانقلابات فى بلادهم . أما الأخطار التى تهدد حياتهم فلم تكن أكثر مما قد يصيبهم فى الحروب عند ما يقومون بخدمة الجيش . ولم يكن النبلاء الروس ليبخلوا بدمائهم فى سبيل بلادهم ، وليس لهم من مطمح أكبر من مراتب الدولة أو مراتب الشرف فى الجيش .

هذا هو نمط المعيشة التى كان يعيشها الكونت نقولا تولستوى صاحب الضياع الواسعة فى إقليم « تولا » وصاحب القصر الكبير فى « اسنايا بوليانا » والنبيل من أعرق الأسر الروسية حين ولد له فى الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٨٢٨ « ليف » أى ليون تولستوى ولده الرابع .

٢

نشأة

فى هذا القصر الكبير نشأ « ليون » وترعرع مع إخوته الثلاثة الذين يكبرونه سناً ، فى رعاية والده الكونت نقولا وفى حضانة قريبته تاتيانا ، وقد قامت من الأطفال مقام الأم التى لم يكد « ليون » يعرفها إذ توفيت بعد وقت قصير من مولده . وكان ليون يحيا حياة أطفال النبلاء ، يجد الغرف الفسيحة تقطعها قدماه الصغيرتان جرياً ، والحقول الواسعة والغابات يرتع فيها تحوطه عيون الخدم والمراضع ، إذا شكا البرد فهنالك الدثار الدافىء من الصوف السميك ، والكأس الساخنة من منقوع الشاى . المغلى فى « السموفار » ، وإذا جاع قدمت إليه الفطائر سريعاً . ثم هنالك المثقف الألمانى الذى جئ به خاصة لتهذيب إخوته وتعليمهم المبادئ الأولية ، وتعليمه هو بمجرد أن يستطيع تلقى الدروس .

تلك حياة ليون الصغير ، فى السنوات الأولى من زمن الطفولة بين إخوته وبين ذلك الحشد من الناس الذين يسكنون قصر « اسنايا بوليانا » ويعيشون فى كنفه ، وهو حشد غريب حقا : تجد

بينهم الخدم الذين يقومون بأعمال معينة ، والأتباع الذين لا يعملون عملا معيناً ، وتجد الضيوف الذين كانوا عابرين فأقاموا ، وذلك الأبله الذى تقابله كثيراً فى القصص الروسية والذى يشعر نحوه الأتقياء من أفراد الأسرة بشفقة ممزوجة بشىء من الاحترام أحياناً والخوف أحياناً ؛ إذ يعتبره بعضهم من ذوى القربى عند الله وذوى الحظوة لديه تعالى ، وتجد أناساً آخرين تبعث إقامتهم على الاستغراب فى نفوس الناس فى أية بلدة أخرى من بلاد العالم ، ولكنهم فى روسيا ليسوا موضع الغرابة ، فهنالك الفتاة ديموسكا ابنة أحد الجيران النبلاء وهو رجل لم يتزوج طول حياته . وهنا فتى يشاهد سائراً فى الضيعة أحياناً وهو يكبر أكبر الإخوة بست سنوات أو سبع ، وهو أقرب الإخوة شبهاً من أبيهم لأنه فى الواقع أخ لهم غير شرعى من فتاة فلاحة .

فى هذا الجو نما الطفل وترعرع بين إخوته . فماذا كان شعوره عندئذ نحوهم ؟ إنه بلا ريب يحب إخوته جميعاً ولكن هذا الحب تمازجه مشاعر أخرى ؛ فهو يحترم نقولا أكبر الإخوة ويجله إجلالا وهو يميل إلى ديمترى ويشعر نحوه بعطف ، أما « سرج » فكان متعلقاً بحبه تعلقاً كبيراقد يمازجه شىء من الغيرة لوسامته .

فى سنة ١٨٣٦ رأى الكونت نقولا من واجبه أن يلحق أولاده بالمدرسة بعد أن انتهى عهد تعليمهم بالمنزل ، فقرر الانتقال

بهم إلى موسكو، واتخذ داراً كبيرة تتسع للأسرة ولخدمها وحواشيها ؛ وانتقل هؤلاء جميعاً فى موكب كبير إلى الدار التى اتخذها رب الأسرة وهم نيف وثلاثون نفساً ، وقد زودت هذه الدار بكل ما كانت تزود به دور سادة الريف من خيرات إذا سكنوا المدن ، ونقلت إلى الدار بعض الأبقار لكى تمد أهلها باللبن ! وكانت قافلة من الركائب تنقل إلى الدار فى كل أسبوع ، مؤونة أهلها من زيت وخبز وخمر !

لم تمض سنة على الأطفال فى المنزل الجديد بموسكو حتى فوجئوا بوفاة أبيهم الكونت نقولا ؛ إذ سافر لبعض الأعمال فمات فى الطريق ، وانتقل الأطفال إلى حضانة جدتهم . على أنه لم تمض تسعة أشهر أخرى حتى توفيت الجدة ، فتولت عمتهم أمرهم وظل الأطفال إلى خريف سنة ١٨٤٠ فى رعايتها . ثم شعرت العمة بأن نهايتها دنت فانتقلت إلى دير توفيت فيه، وتولت عمة أخرى حضانتهم، وهكذا اضطر الأطفال إلى الانتقال إلى بلدة « قازان » ذات الأبراج التترية ، والكنائس تعلوها القباب ، والمساجد ترتفع منها المآذن ، وفى تلك البلدة التى كان منظرها الخارجى أجمل كثيراً من عمرانها الداخلى ، أقام « ليون » ست سنوات كان لها أثر كبير فى تكوينه .

إنها السنون التي ينتقل فيها المرء من الطفولة إلى الرجولة . وكان

من قبل يعيش عيشة هادئة، فاذا به ينتقل إلى حياة صاخبة؛ إذ أن عمتهم وزوجها محبان للحفلات والمراقص والسهرات الليلية ، وذلك مما حمل الصبى ليون على الالتفات بنوع خاص إلى مظهره ، وأخذ يقارن بين صورته وجمال صورة أخيه سرج ، وكلما ساءل المرآة زاد يقيناً فى دمامة صورته؛ إذ يرى تينك العينين الرماديتين الصغيرتين ، وذلك الأنف الأفقى القصير ، وتينك الشفتين الغليظتين ، وظن أن الناس لا يمكن أن ينظروا لمثل هذه الصورة إلا بالكراهية ، فأحب أن يدفع هذه الكراهية بالكبرياء والتعاظم، فأخذ يأتى بأفعال غريبة، ففى يوم يحلق رأسه عله يخفف من قبح صورته ، وأحياناً يتفنن فى ترجيل شعره كى يبدو على ملامحه الحزن والأسى ، وتارة ينزع شعر حاجبه كى ينمو الشعر كثيفاً ، ولكن هذه المجهودات لم تغن شيئاً.

وأخيراً عمد إلى القراءة يقبل عليها فى نهم ويفكر تفكيراً طويلاً. وحاول أن يحل ألغاز الحياة والوجود والخلود والبعث والموت وغير ذلك من المشكلات، ثم يعود فيفكر فى الوجود وجميع مظاهره ولا يعتقد إلا بوجود نفسه ، ويحاول أن يقوى من هذه النفس.

وتعتريه نوبات يندفع خلالها فى الملاذ اندفاعاً، فيشرب الخمر حتى لا يكاد يفيق ، ويتهالك على النساء فتيات ومتزوجات ، من بنات الأسر ومن طريدات المجتمع ، ثم لا يلبث أن يزهد

فى هذه الأمور ويأخذ نفسه باللوم ، ويندفع فى تأنيب نفسه وأخذها بالشدة .

فى السادسة عشرة من عمره شعر فى نفسه بالميل إلى الالتحاق بالسلك السياسى أو أن عمته رتبت له ذلك ، فعول على أن يوجه دراسته إلى ما يلائم المستقبل الذى رسمه لنفسه ، وأخذ يعد نفسه للالتحاق بكلية الدراسات الشرقية فى جامعة قازان ، وأخذ يتلقى دروساً فى لغات شتى منها اللغة العربية واللغة التركية ، وأقبل يستعد لامتحان الالتحاق بالجامعة ، ولم يكن النجاح من نصيبه فى الامتحان الأول لضعفه فى علمى التاريخ والجغرافيا ، ولكنه أعاد الكرة فنجح والتحق بالدراسات الجامعية . وكان طالباً متوسطاً لأنه كان كثيراً ما يغيب بذهنه عن الدراسة ، وكان يقبل إقبالا شديداً على ما يحب دراسته لا ما تجب دراسته ، ولم يكن محبوباً لغرابة أطواره ؛ فهو يندفع تارة إلى عشرة زملائه ويشاركهم فى جدهم ولهوهم ، وتراه طوراً متباعداً منقطعاً إلى نفسه . فلما جاء أوان الامتحان فى نهاية السنة الأولى من دراسته أخفق فى امتحانه ؛ فإن طريقته فى الدراسة وإقباله على ما يحب وزهده فيما لا يحب ليس من شأنه أن يؤدى به إلى النجاح .

وكان هذا الإخفاق سبباً فى عدوله عن الاستمرار فى كلية اللغات الشرقية ، ولكنه كان لا يزال راغباً فى الحصول على درجة

جامعية ، فنصح له إخوته أن يلتحق بكلية الحقوق ، وكانت هذه الكلية تجد أكبر الإقبال من أولاد الأعيان الذين يريدون أن يحصلوا على الدرجات الجامعية فى سهولة ، فان أساتذتها حينئذ جماعة من الألمان الذين كانوا يتساهلون فى امتحاناتهم آخر السنة بما لا يفعله أساتذة الكليات الأخرى . وانتقل تولستوى إلى دراسة القانون. على أن هذه الدراسة الجديدة لم تكن أكثر ملاءمة من الدراسة الأولى . وكان يقبل على مادة أو مادتين من مواد الدراسة غير أن ذهنه لم يكن ليقبل هذه الدراسة على أنها غاية فى ذاتها ولقد وصف دراسته فيما بعد بقوله : «كنت فى وقت ما طالباً يدرس القانون ، وأذكر كيف وجدت لذة فى السنة الثانية من دراستى عند دراسة نظرية القانون لا لمجرد النجاح بل لأنى وجدت فيها تفسيراً لما كان غامضاً لدى وغريباً فى حياة الناس ولا أزال أذكر كيف أنى كنت كلما زدت نظراً فى نظرية القانون كلما زدت يقيناً بخطأ هذا العلم أو أنى لم أكن قادراً على فهمه. وبالاختصار ابتدأت أعتقد بعض الشىء أن أحد اثنين لا بد أن يكون بليداً جداً : إما نافولين مؤلف دائرة معارف القانون الذى كنت أدرس فيها ، وإما أنا إذ كنت غير قادر على فهم كل ما فى ذاك العلم من حكمة وكنت عندئذ فى الثامنة عشرة ولا أعترف بغباوتى ، فتقرر لدى أن دراسة القانون مستعصية على مداركى فأقلعت عنها » .

الواقع أن الدراسة المقررة لم توضع لذهن فطر على البحث والعمل على استكشاف الأسباب الأولى للحياة ولقد حز ر هذه النزعة فيه أحد الأساتذة فعهد إليه فى أن يكتب فصلا فى المقارنة بين « روح القانون » لمونتسكيو والبيان الذى كتبته القيصرة كاترين للجنة التى وضعت القانون فى عصرها . فأعجب تولستوى بهذه الفكرة ، وأخذ يقرأ حول هذا الموضوع كل ما يقع بين يديه .

لم يكن الشاب الذى وصفه أستاذ التاريخ الروسى بأنه كسول كسولا ، بل كان مقبلا على القراءة يلتهم المؤلفين التهاماً ؛ فقد قرأ قصص سو وديما وبول دى كوك وبعض مؤلفات ستَرن وديكنز وجوجول وترجنيف وليرمنتوف وبوشكين وشيللر ولم يكتف بهذه الثروة الأدبية بل عكف على دراسة الفلسفة والاقتصاد السياسى والإنجيل ، وقرأ مولفات هجل ، وأقبل على قراءة فولتير ، ولكنه لم يتأثر به كثيراً .

ولعل أكبر رجال الفكر الذين كان لهم تأثير دائم فيه هو روسو فقد كتب فى السنوات الأخيرة من حياته : « كان روسو أستاذاً لى منذ الخامسة عشرة من عمرى ؛ فروسو والإنجيل هما العاملان الكبيران المؤثران فى حياتى » . على أن تولستوى كان كريماً فى الاعتراف بفضل المؤلفين عليه ، فهنالك فارق كبير بين آراء روسو وبين آرائه ولقد ذكر هو نفسه هذا الفارق حين أوضح أن

روسو لا يعترف بالحضارة فى حين هو لا يعترف بالمسيحية المزيفة .

وفى مارس من سنة ١٨٤٧ أصيب تولستوى بمرض فنقل إلى المستشفى وفيه . عاد إلى التفكير فى حالته ، وأخذ يؤنب نفسه على حياة اللهو التى يعيشها ، وتذكر ما قرأه عن بنيامين فرانكلين الأمريكى الذى اعتاد تسجيل أخطائه يوميا فى مذكرته ، فعول منذ تلك اللحظة على أن يقيد فى مذكرات يومية كل ما يأتيه من خير أو شر ، ويسجل كل ما يدور بخلده عن حياته . ومنذ تلك اللحظة تكونت فيه هذه العادة ، التى لم يهملها إلا فترة قصيرة . ودراسة هذه المذكرات تلقى ضوءاً كبيراً على حياته الطويلة ، وتظهر لنا وجوه النشاط العظيم فى ذلك العقل الجبار ، ومحاولاته المتكررة للتوفيق بين أعماله ونياته .

فى تلك السنة قرر تولستوى أن يترك الجامعة والقانون ، وكان أخواه ديمترى وسرج قد أتما دراستهما . وحدث أن قسمت ثروة الإخوة فيما بينهم ، فكان من نصيبه ضيعة اسنايابوليانا وضيعات أخرى تبلغ فى مجموعها خمسة آلاف وأربعمائة فدان ، وفيها ثلاثمائة وخمسون من الفلاحين الأتباع مع أسرهم .

بدأ يشعر بتبعتة نحو هذه الضياع الواسعة ، ولعله أخذ يمل عيشة اللهو فى فازان . ولا ريب فى أنه مل الدراسة الجامعية فعزم على السفر إلى ضيعته ، وقد امتلأت نفسه بالآمال الواسعة

والآراء الخيالية فى الإصلاح ، إصلاح نفسه وإصلاح فلاحيه . فما إن وصل إلى قصره حتى أخذ ينشىء الدور النموذجية للفلاحين ويفتح المدارس لتعليم أبنائهم، ويعظهم ويصف لهم كيف يريد أن يعمل لخيرهم ، فماذا كان نصيبه ؟ لقد وصفت هذه الدور النموذجية بأنها أشبه شىء بالسجون لأن الفلاح لم يجد فيها ما ألفه، وضاق الفلاحون بذلك السيد الذى يأبى إلا أن يحرمهم مساعدة أبنائهم فى أعمال الحقول ، ولم يروا فى قوله إنه يعمل لخيرهم إلا حيلة جديدة ليبتز من أقواتهم الضئيلة أو من جهودهم. فهل وجد السيد الذى يعمل لخير الفلاحين من غير أن يكون فى ذلك غنم لنفسه ؟ ثم ذلك الفريق من رجاله الذين كانوا يتصرفون فى أمور الأرض باسمه هل يقنعون بتدخل السيد ؟ وهل يقنعون بالكسب الحلال ويقلعون عن الوسائل العدة التى كانوا يبتزون بها أموال الفلاح ؟ لا شك أنهم يقيمون الصعاب فى طريقه ، وهو لا يلبث أن يشعر بهذه الصعاب فيمل هذا المسعى ويستولى عليه الفتور فيما أخذ به نفسه . وكان يجاوره فى ضيعته أخوه سرج وهو يعيش عيشة تمتع وتهتك مع فتاة غجرية ذات صوت خلاب ؛ فأخذ الفتى يتردد على دار أخيه وبين صخب الغناء والكؤوس ينسى نفسه ويمضى أياماً فى لهوه ثم يعود إلى نفسه وإلى مساعيه فى الإصلاح.

غير أنه أخذ يشعر مرة أخرى بالقلق لعدم إتمامه دراسته، فعول على الذهاب إلى بطرسبرج عاصمة الدولة ، إما ليتم هذه الدراسة أو ليجد عملا فى خدمة الحكومة وفى عاصمة الدولة وجد حياة تختلف عما عرفه فى موسكو وقازان . ففيها الناس، كما بدا له ، جادون يسعون للعمل . ولكنه لم يلبث أن استكشف أن الجد فى العمل يدعو إلى التفنن فى ألوان اللهو ،وانغمس فى الخمر والقمار والنساء إلى أن عاوده تأنيب الضمير ، فهرب من المدينة إلى ضيعته .

خطر لأخيه الأكبر نقولا، وكان فى زيارته، أن يستصحبه معه إلى بلاد القوقاز وهو ضابط ملتحق بالجيوش، ووافق تولستوى على الفكرة ، وسافر مع أخيه فى طلب حياة جديدة ، بل قد يكون فى عمل جديد .

٣
الشباب

رحل تولستوى مع أخيه قاصداً بلاد القوقاز، ولم يسافرا فى القطار بل اتخذا باخرة تسير بهما فى مياه الفولجا فى نزهة نهرية جميلة وتحملهما نحو تلك البلاد الواسعة التى استخلصها الروس فى أوائل ذاك القرن من يد الأتراك الفاتحين ، فأذكى استخلاصها

حماسة عظيمة أثارت قرائح كثير من الأدباء . ولم تكن القوقاز حتى منتصف القرن التاسع عشر قد خضعت خضوعاً تاما بل كان أهل الجبال يمتنعون على الروس كما امتنعوا على الأتراك من قبل وهم قوم أحرار لا يريدون أن يستبدلوا سيداً بسيد . فلم يستطع الروس إلا أن يتخذوا قواعد فى الجبال يقيمون فيها حرساً من الجنود الذين يحتفظون بمظهر السلطان للدولة . وفى تلك البلاد أقام تولستوى ثلاث سنوات فى رفقة أخيه أولاً ثم رجلا من رجال الجيش . وإلى « ستاروجلادفسك » إحدى القواعد ، قصد الشاب تولستوى بصحبة أخيه حيث أقام فى خيمته لا يعمل شيئاً ولا يجد ما يلهيه فى وحدته ولم تكن المنطقة التى نزل فيها مما يحقق أحلامه وكان ينتظر أن تكون هذه البلاد على جانب عظيم من الجمال فاذا بها عارية عنه ، وأعرب عن حالته النفسية بقوله : « كيف سقطت على هذا المكان ؟ هذا ما لا أعلمه ؟ وكيف جئت إلى هنا ؟ هذا ما أجهله » .

ولكنه ما لبث أن انتقل إلى جهة أخرى من القوقاز هى « ستارى يورت » ذات منظر جميل ، فيها عيون المياه الحارة يجللها الضباب ، والطواحين منصوبة على مجارى الماء الواحدة تعلو الأخرى ، وتأتى نساء التتر لغسل ثيابهن يستعملن أقدامهن فى هذا العمل ، ومنظرهن فى تجمعهن ، على وصفه ، أشبه ببيوت

النمل والنمل من حولها تتحرك ، وكان يقضى الساعات الطويلة وهو يتأمل هذا المنظر كما وصف فى رسالة لخالته . ولكنه لم يقل لها أكان يعجبه مجرد منظر تلك الجموع التى تتحرك كالنمال ، أم كان يهمه منظر الفتيات فى غدوهن ورواحهن بملابسهن الشرقية ذات الألوان الزاهية وما تخفيه أو ما تظهره من أجساد تتحرك تحت تلك الثياب ؟

أثرت تلك الوحدة بين المناظر الرائعة تأثيراً خاصا فى نفس ذلك الشاب الذى عرف الملذات وانغمس فيها انغماسا ، فشرب من الخمر حتى لم يبق من مزيد ، وقامر حتى خسر أكثر من مرة كل ماله ، وعاشر النساء من طبقات مختلفة ، فعرف الأميرات ونساء الغجر ، فهو لم يتأثر بهذا الجمال الطبيعى كما يتأثر الشعراء ، وهو يسخر من الشعراء الذين « يزعمون أن الجبال كأنها تتحدث إليهم ، وأن العصافير تقول هذا أو ذاك ، وأن الأشجار تومئ إليهم من بعيد » بل هو يشعر وسط هذه الوحدة بشعور آخر، فهو يخلد إلى نفسه يحاسبها عما فعلت فى ماضيها : هل عيشة موسكو و بطرسبرج عيشة مرضية : تلك المجتمعات الراقية البراقة التى حرص الشاب تولستوى على أن يظهر فيها حيث يجتمع بعلية القوم من رجال ونساء فى أحدث الثياب وأكبر مظاهر الغنى إما ليتحدثوا أو ليرقصوا أو ليستمعوا إلى الموسيقى أو ليشاهدوا المسرحيات فى دور

التمثيل الفخمة ؛ تلك السهرات الطويلة أمام مائدة خضراء حيث يصل الرجال الليل بالنهار فى أيديهم الورق ، وفى صدورهم الأمل فى الربح ؛ تلك الاجتماعات السرية فى السكن الخاص الذى اتخذه للخلوة بالنساء كما هى عادة النبلاء ، هل كانت هذه العيشة مرضية ؟

عجيب أن نرى الشاب حتى فى تلك السن ، يحاسب نفسه حساباً عسيراً ، لا لكى يقلع عن عاداته ، فهولم يقلع بعد ذلك ، بل لأن طبيعته مزدوجة يعمل جانب منها عملا ، ويرقبه الجانب الآخر مستحسناً أومستهجناً دون أن يتدخل فى عمله .

على أن الشاب تولستوى لم يكن ليترك طويلا إلى تأملاته فى تلك الجهة السحيقة الهادئة من أرض القوقاز فما لبث أن نقل إلى جهة أخرى ثم انتقل بعد قليل إلى سباستبول حيث كانت تستعر معركة الدول التى رأت أن تؤيد تركيا فى قتالها مع نقولا الأول فى حرب القرم ، وأن تحد من مطامع العاهل الروسى ؛ وحينئذ استطاع تولستوى أن يرقب أعمال الجنود عن كثب ، ولعله فى ذلك المكان بدأ تقديره الحقيقى للجندى البسيط من الفلاحين الذين كانوا أتباعاً لسادة الأرض . ففى تلك الأصقاع عرف هؤلاء الجنود فى معاطفهم الداكنة اللون وقد مر بهم كورنيلوف القائد وقال لهم . « يجب أن تعرفوا كيف تموتون يا أولادى ، هل تعرفون

كيف تموتون ؟ » : وخرج دوى صوت خافت من تحت تلك المعاطف الداكنة والحراب اللامعة : « أجل سنموت » وفى تلك الأصقاع عرف ما يلقاه هولاء الجنود من إهمال القيادة العامة ومن عبثها وإسرافها فى دماء هؤلاء المساكين ، حتى قال تولستوى إن هؤلاء الجنود يبلغون مرتبة القديسين ، ولكنه مع ذلك لم يكن يتورع عن صفع هؤلاء القديسين إذا ما خالفوا أمراً من أوامره !

كان تولستوى يعمل فى إدارة فرقة مدافع ، وهناك استطاع أن يتذوق حقيقة الحرب وما فيها من أهوال مخيفة ، وكلما ترك مركزه للراحة يرسل رسائل مطولة عن هذه الحياة ، ولم تعد تلك الرسائل مجرد أوصاف خيالية ، بل هى مجموعة مشاهدات واقعية يحلل فيها روح الفرد من المقاتلين وروح تلك الجموع المختلفة من الرجال . على أنه لم يلبث طويلا حتى دعى إلى المؤخرة . ولعل ذلك تم بوساطة أقربائه ، وصار بعيداً عن الأخطار . فكان يقضى وقته فى المقامرة وقد أقبل عليها إقبالا شديداً ، وحاول أن يبتدع وسائل للربح ، على أنه كان يخسر أموالا كثيرة ، وفى ذات ليلة خسر ثلاثة آلاف وأربعمائة روبل .

وكان مع ذلك يدعى أحياناً مع فرقته إلى مواقع القتال فاشترك فى موقعة « تشويرنايا » حيث خسر الروس خسارة بالغة ، واشترك فى الدفاع العنيف عن موقع مالاكوف حين سقطت

سباستبول فى اليوم التالى فى أيدى الأعداء . وكان تولستوى قد تأثر بسير الحوادث فتطوع فى المحاولات الأخيرة للدفاع . ووصف تأثير سقوط المدينة عليه فى رسالة له يقول فيها : « لقد بكيت عند ما رأيت النار تعبث بالمدينة ورأيت الأعلام الفرنسية تخفق فوق معاقلها » .

إنهارت الخطوط الروسية، فانتقل تولستوى مع فرقته متراجعاً نحو الشمال ، وأخذ فى هذه اللحظة يفكر فى مستقبله وإذا بهذا السيد الذى أريد به أن يكون رجل حرب يجنح إلى صناعة الأدب ، وإذا به يسطر فى يومياته فى ذلك الوقت: « إن مستقبلى هو فى الأدب . يجب أن أكتب وأكتب . ومنذ الغد سأعمل طول حياتى فى كل شيء الشعر، والدين ، والآداب ، أو أترك كل شىء ».

٤

أديب

عند ما قرر الكونت تولستوى أن يتخذ من الأدب مهنة كان قد وجد من قبل ميلا شديداً إلى الأدب ، وأقبل على الكتابة لاسيما فى تلك العزلة ببلاد القوقاز. ولقد ذكرنا كيف أكب على قراءة الآداب الأوربية منذ صغره، فما إن شب حتى تعرف إلى

الأدباء الروس وخالطهم ، ومع ذلك تردد قبل أن يقدم على الكتابة . فالنبلاء من أمثاله كانوا لا ينظرون فى ذلك الوقت إلى الأديب نظرة الاحترام والتقدير . فلما أقدم على نشر كتابه الأول لم يذكر اسم المؤلف ، وهذا الكتاب هو قصة « الطفولة » التى ظهرت فى مجلة شهرية فى سبتمبر من سنة ١٨٥٢ وهو لا يزال وقتئذ فى جيش القوقاز، ولم يجرؤ على نشر هذه القصة حتى أعاد كتابتها أربع مرات ، وهى عبارة عن مذكرات طفل فى العاشرة من عمره من أسرة عريقة يصف فيها حياته المنزلية ، فيصف مربيه الألمانى ، وأمه الحنون وإخوته وأخواته ، ومربياتهم ، وما يعملونه فى جدهم ولعبهم ، وأحلام الطفولة وآمالها ، ثم ما انتاب أمهم من مرض ووفاتها ، وما انتاب قلوبهم الصغيرة من حزن لم يلبث مرح الطفولة أن محاه ، كل ذلك فى سرد بسيط قوى أخاذ .

عند ما ظهرت هذه القصة فى المجلة حيا فيها أكبر أدباء الروس وفى طليعتهم ترجنيف ودستويفسكى أدباً رائعاً . والواقع أنها على قول الأمير « ميرسكى » مؤرخ الآداب الروسية هى الحد الفاصل بين القصة القديمة والحديثة ، فاذا تلوناها خيل إلينا أننا نقرأ لكاتب من كتاب القصة فى القرن العشرين ، وخيل إلينا أننا نقرأ قصة لأندريه جيد ، أو للورنس ، فهو أول من شرح الدخائل النفسية التى تسيطر على أشخاص قصته شرحاً مستفيضاً

كما يفعل الكتاب الحديثون ، وهو أول من اهتم اهتماماً شديداً بسرد الحوادث سرداً فنيا .

ولا ريب فى أن الأدباء عند ما أثنوا على قصته لم يقدروها قدرها الحقيقى ، ولم يعرفوا أنه الكتاب الأول لأديب دخيل ليس من طغمتهم ، نقل الأدب الروسى من عصر إلى عصر ، وأنه سوف يكون له فى الأدب العالمى تأثير لا يمكن أن يبلغوه .

أما بالنسبة لتولستوى فإن نشر هذه القصة صاحبه حادث سيئ لديه ؛ إذ ذكر خطأ فى النشر أنها صفحات من حياة مؤلفها ، وهذا غير حقيقى ؛ ففى تفاصيلها من التباين ما لا يتفق مع حياة تولستوى فى طفولته ؛ فهو لم يكد يعرف أمه . أما بطل قصة الطفولة فإنه عاش فى رعاية أمه متمتعاً بحنانها حتى الثانية عشرة من عمره . ومع ذلك لم يكن ثمة شك فى أن العواطف التى يبديها « نكولنكا » والأفكار التى دارت بخلده فى القصة ، هى عواطف وأفكار عرفها تولستوى عند ما كان صغيراً . وقد ذكرنا هذا الحادث لأن الخطأ لا يزال يتكرر حتى الآن ، ولا يزال بعض الكتاب يظنون أن قصة الطفولة هى قصة تولستوى نفسه .

فى هذه الأثناء حين كانت هذه القصة حديث أهل بطرسبرج وهى تنشر تباعاً فى المجلة الشهرية كان المؤلف لا يزال فى القوقاز يشهد الأدوار الأخيرة من الهزائم التى منيت بها بلاده حول سباستبول

ويرى مصرع الجنود الروسيين وما يبدونه من شجاعة لاغناء فيها، ويرى ما يبديه رجال القوزاق من بطولة تستدعى الإعجاب، فترسم فى نفسه صوراً ثابتة تمتزج فيها الحقيقة بالخيال، وهو يدون تلك القصص فى صور نشرها فيما بعد فى مجموعة القصص المسماة «القوزاق».

فاذا عاد إلى بطرسبرج وجد نفسه علماً من أعلام البيان يتسابق الأدباء إلى التعرف إليه، ولم يكن تولستوى حينئذ، ولم يكن فى حياته دائما بالرجل الذى يتوارى من الشهرة، ويخجل لها، لذلك نراه يقبل فى نهم على الأندية والجمعيات الأدبية. وكانت تلك الجمعيات تنقسم إلى فريقين: فريق يرى احتذاء أوربا الغربية وآدابها ويرى فى ذلك السبيل القويم لنهضة بلاده، والفريق الآخر يرى التمسك بأهداب الماضى والاحتفاظ بذلك الطابع الذى يميز الروح السلافية بما فيها من تلك النزعات العنيفة التى لا تزال تضطرم فى نفس لم تهذبها قيود المدنية.

ومن الغريب أن يكون من أشهر أدباء النزعة السلافية دستويفسكى ذلك الأديب الذى ذاق آلام النفى والسجن وعرف الفاقة والجوع، ولكنه لايمكن أن يكون قريباً إلى نفس تولستوى المنحدر من أعرق أسر النبلاء؛ فهو يعيش فى عالم آخر غير العالم الذى يعيش فيه رجل ينعم بالضياع الواسعة وآلاف من الفلاحين.

أما زعيم الفريق القائل بالاتجاه نحو أوربا الغربية فهو إيفان ترجنيف الارستقراطى الذى يمتلك أراضى واسعة وفلاحين ، وهو يقضى أكثر أوقاته بعيداً عن وطنه حيث يقيم فى بلاد يراها أكثر تمدنا من هذا الوطن لا سيما باريس .

وقد توطدت الصداقة بين تولستوى وترجنيف وكان يلذ لتولستوى أن يغشى داره ، على أنه مما يشك فيه أن ترجنيف كان يرحب بذلك الأديب الجندى ، فترجنيف كان أنيق المظهر شديد التمسك بآداب السلوك التى عرفها واعتادها فى الأندية الباريسية حيث اعتبره الأدباء الفرنسيون واحداً منهم ، مع أنهم شديدو الحرص على عدم الاعتراف بالأجانب والابتعاد عنهم ، أما تولستوى فكان لا يعرف من آداب السلوك شيئاً فكان يقبل على الخمر يكرع منها فى نهم ، فإذا تحادث أو تناقش صاح صاخباً معربداً بينما المضيف يرتعد فرقاً وإشفاقاً على أثاث منزله .

لعل تأثير ترجنيف كان الحافز له على السفر فى رحلة لزيارة بعض البلاد الأوربية ولزيارة باريس بنوع خاص ، فقام بالقطار إلى فرسرفيا ثم مر ببرلين ووصل إلى باريس حيث مكث عدة أشهر يجول فى أنحاء عاصمة الامبراطورية الثانية ويستمتع بكل ما يستمتع به الأجانب فى تلك المدينة سواء فى ذلك العصر أو فى غيره من العصور ، فهو يقول فى رسالة إلى صديق « لقد قضيت

حتى الآن شهرين فى باريس ، ولم تلح لى اللحظة التى أنتهى فيها من الاستمتاع بتلك المدينة أو أفقد فيها ما أجده من سحر . ولقد تبين لى الآن أنى كنت على جهل مقيم لم أشعر به كما شعرت به الآن ، وأن مجرد الشعور بذلك لمما يبعثنى على أن أهنئ نفسى بالقدوم إلى هذه المدينة لا سيما أن هذا الجهل منى يمكن إصلاحه الآن . وما أشد ما أشعر فيها من جمال الفنون الجميلة فى قصر اللوفر وقصر فرساى ومعهد الأوبرا والحفلات الموسيقية والمسارح والمحاضرات فى الكلية الفرنسية والسربون وتلك الحرية الاجتماعية التى لا نجد لها أقل أثر فى روسيا . . . »

ومع ذلك عاد تولستوى وهو فى سن الكهولة إلى هذه الذكريات فيما بعد ، وقال أن هذه الزيارة تركت فى نفسه أسوأ الأثر !

٥

قلق وزواج

أشرف تولستوى على العقد الرابع من حياته وهو يعيش وحيداً لم يتخذ له شريكة فى الحياة ، ومع ذلك عرف الحب أكثر من مرة ، وأحيا آمالا فى قلب أكثر من فتاة ، ولكنه كان دائماً ينكص فى اللحظة الأخيرة ويفر فراراً غير شريف .

لم يكن ذلك عن زهد فى الزواج أو عن عقيدة فى الاحتفاظ بحريته ولا عن خجل فى طبيعته . فالزهد فى الزواج لم يخطر له ، لم يكن هو فى ذاك الوقت ممن يرون فى الزواج قيداً للحرية ، والخجل ليس من صفات ذلك الرجل الذى أمضى الكثير من الليالى الصاخبة بين الخمر وبنات الهوى ، ولكنه على الأرجح نتيجة لنفس قلقة غير ثابتة تتبين مظاهرها فى الكثير من تصرفاته فى كل أدوار حياته . ومن مظاهر هذا القلق فى ذلك الحين اعتقاده الراسخ بأنه مصاب بالسل ، وتأصل هذا الاعتقاد فى نفسه منذ سنوات ، ومما زاد فى اعتقاده إصابة أخيه نقولا وإصابة غير واحد من أقاربه بهذا الداء. وفى البلاد الشديدة البرودة كروسيا يتعرض الناس للإصابة بالأمراض الصدرية فى سهولة ، ولكن ليست كل إصابة هى نتيجة لهذا الداء الوبيل .

ومما زاد فى مظهر القلق لديه رحلته الأولى إلى فرنسا وسويسرا ، إذ لا بد أنه قارن بين حالة تلك البلاد التى عرفت الحرية ، وبين بلاده وما فيها من سلطان مطلق يقضى على أى مظهر من مظاهر الحرية بيد من حديد . لذلك نراه فى السنوات الخمس التى تلت تلك الرحلة يعيش قلقاً متنقلا بين قصره فى اسنايا بوليانا حيث يمضى الصيف ، وبين داره فى موسكو حيث يقضى الشتاء ، وبين هذا وذاك زيارات قصيرة لبطرسبرج ، يلتقى فيها ببعض

الأدباء وعلية القوم من أقاربه أو بالأحرى قريباته ، وقد اتصل فى ذلك الوقت بخمس منهن على أن أقوى علاقة كانت مع الكونتيسة الكسندرا تولستوى الوصيفة فى البلاط ، وهى التى ظلت طول حياتها تخلص له الود ولربما كانت تضمر له الحب . وهو يكتب إليها إذا ما سافر الرسائل الطويلة ، ويلقبها على سبيل المداعبة بالجدة لشدة حدبها عليه وتشددها فى النصيحة له ، وفى الرسائل التى كتبها فى ذلك الوقت يعبر عن قلق نفسه وحيرتها ؛ فهو يقول ذات مرة « إن الإنسان يجب ألا ينشد السعادة بل ينشد الخير » ويقول فى رسالة أخرى « إن هدوء النفس هى حال النفس غير الأمينة ». وفى تلك الآراء نرى جانباً بارزاً من فلسفة تولستوى وآرائه فى الحياة تظهر قبل أوانها .

فى سنة ١٨٥٨ عن لتولستوى أن يقوم برحلة إلى غرب أوروبا فسافر بالباخرة من مدينة بطرسبرج الى شتتن من بلاد المانيا ومنها قصد برلين ، وصحبه فى هذه الرحلة بغض إخوته وكان من بين الأغراض التى توخاها من رحلته زيارة طبيب مشهور فى تلك المدينة للتأكد من حقيقة مرضه . وزار هذا الطبيب بصحبة هؤلاء الإخوة والأخوات ، ففحصهم وأعلن براءتهم من مرض السل الخبيث ، إلا أنه حكم عليهم بأن يذهب كل عضو من أعضاء الأسرة إلى بلد من بلدان الاستشفاء غير الذى وصفه للآخر ،

فكان على تولستوى أن يتم رحلته وحيداً .

على أن تولستوى كانت له أغراض أخرى من هذه الرحلة ، فقد أكب كما ذكرنا فى بدء حياته على دراسة مؤلفات جان جاك روسو الكاتب والفيلسوف الفرنسى ، وأعجب بآرائه فى التعليم ونشر فى صباه مقالا عنه ، كما حاول إقامة مدرسة نموذجية فى ضياعه الواسعه لتعليم النشء من أولاد الفلاحين ، فلم يوفق وأقفلت المدرسة وعاد مشروعه بالاخفاق ، وانصرف إلى أمور أخرى . وفى تلك الفترة من حياته عاودته حمى التعليم مرة ثانية وأحب أن يدرس النظم التى تتبع فى عاصمة البلاد البروسية ، فقصد معاهد العلم العالية حيث واظب على محاضرات درويسن المؤرخ المعروف ، ومحاضرات بواريمون العالم الفسيولوجى ، ثم زار مع أحد الطلبة مدارس العمال ومدارس صغار التلاميذ ، فأعجب إعجاباً شديداً بمدارس العمال لما رآه من حرية المناقشة بين المعلم وطلبته ، ولكنه لم يعجب بمدارس الأطفال فى ألمانيا إذ رأى فيها شدة ونظاماً لا ينبغى فى رأيه أن يتبع مع صغار الفلاحين .

وكان عليه فى تلك الرحلة واجب عائلى هام آخر ، هو زيارة أخيه الأكبر الذى أصيب حقيقة بالسل وهو فى إحدى مدن الاستشفاء الألمانية ، وبلغ مرضه حالة أقلقت أفراد الأسرة

فصارت تلح على تولستوى فى أن يذهب لزيارة أخيه، ونراه يؤجل ويؤجل تلك الزيارة جرياً وراء دراسته للموضوع الذى شغل فكره. ولقد اضطر أخوه فى آخر الأمر إلى أن يسافر إلى مونيخ لرؤيته على ما به من مرض . فلما تقابل الأخوان ورأى تولستوى حالة أخيه سافرا معاً إلى جنوب فرنسا التماساً للدفء والشمس ولم يمض غير خمسة وعشرين يوماً حتى مات الأخ بين ذراعى أخيه .

تلك أيام ظلت منقوشة فى ذهن تولستوى وكم من مرة أمدته بصور خالدة فى مؤلفاته وكم من مرة ردد فيها ذلك المنظر : عندما كان يعاون أخاه على القيام لشدة ضعفه فكان الأخ يستاء لذلك ولكن جاء اليوم الذى صار الأخ يقبل هذه المعونة دون تردد . وفى مرة قال له بعد أن عاونه « شكراً لك أيها الصديق » فهو يبحث ويبحث عن معنى كلمة الصديق فى هذه الحالة ؟ هل كان أخوه يبتعد عن أمور هذه الأرض حتى لم ير فيه غير الصديق ؟

وهو يذكر تلك اللحظة الأخيرة عند ما فتح الأخ عينيه وتلفظ بسوال . . . ما هذا ؟ ثم أطبق فمه إلى الأبد . ما أكبر هذه العبارة سيأتى اليوم الذى نسائل فيه جميعاً ما هذا ؟

استأنف تولستوى رحلته وهو مثقل بهذه الأفكار المحزنة ولكن ذلك لم يمنعه من دراسة طرق التعليم فى مرسيليا ثم شعر فجأة برغبة فى التغيير ، فسافر إلى إيطاليا حيث فلورنس وروما ونابولى ثم

عاد بعد ذلك إلى باريس حيث قابل ترجنيف صديقه ومنها رحل إلى لندن ، وهناك كان يرتدى ملابس من أحدث الأزياء ويبالغ فى التأنق ، وأخذ يتردد على المشاهد المألوفة فى ذلك العهد كمنازلة الديكة كما أخذ يزور المدارس المنشأة لأولاد الفقراء ، وذهب إلى البرلمان الإنجليزى حيث حضر خطبة للورد بالمرستون ،وزار أكثر من مرة هرزن الفيلسوف الروسى والثورى المعروف الذى كان يقيم فى لندن ومنها يرسل النشرات إلى بلاده .

بعد فترة قصد تولستوى بلاد البلجيك وفيها علم بالنبأ العظيم الذى اهتزت له أرجاء روسيا والعالم، وهو صدور مرسوم القيصر بتحرير الفلاحين فى ١٩ فبراير سنة ١٨٦١ ، وكان المتبادر الى الذهن أنه سيسرع فى العودة الى بلاده عند سماع هذا النبأ ، فهذا المرسوم يحقق فكرة دارت بخلده منذ سنين وأراد أن يحققها قبل أن يأخذ القيصر إسكندر الأمر بيده ، والآن وقد تحققت فكرته لم تأخذه الحماسة بل ظل يتابع رحلته على مهل .

مكث فى البلجيك زهاء شهر قابل خلاله الفيلسوف برودون وكتب فى أثنائه قصة بوليكوشكا من قصصه الشهيرة . ثم أخذ فى العودة إلى بلاده عن طريق ألمانيا، فزار فيمار وأستأذن الدوق فى زيارة منزل جيته ثم عرج على « يينا » وهنالك تعرف إلى شاب متخرج فى كلية العلوم رأى فيه الشاب الصالح

لأن يكون معلماً بالمدرسة التى عزم على افتتاحها ، بل رأى فيه «جوهرة نادرة» فاتفق معه ومع أهله على أن يسافر معه بل أن يسبقه إلى ضيعته وزوده بالمال اللازم للسفر فى الحال إلى روسيا وتابع هو رحلته . وفى درسدن علم أن هذا الذى اسماه « الجوهرة النادرة » قد احتسى الخمر حتى ضاع صوابه وخسر كل ما أمده به من مال .

عاد تولستوى إلى ضيعته فى اسنايا بوليانا فإذا أمامه عمل جديد اقتضاه صدور مرسوم تحرير الفلاحين . فالمرسوم يقضى بتعيين حكم فى كل إقليم يقوم بالنظر فى المنازعات التى تنشأ بين الملاك والفلاحين عند تحريرهم ووقع الاختيار على تولستوى . وقد احتج الملاك على اختياره لما يعلمونه من نزعته الغريبة نحو تأييد الفلاحين . ولكن الحكومة أقرت تعيينه وأقبل هو على عمله فى نشاط واهتمام غير ، أنه لم يلبث أن مل هذا العمل ، فإن أحكامه كانت لا تقبل من الملاك كما أن الفلاحين انتهزوا فرصة عطفه عليهم فصاروا يرهقونه بالمطالب والشكوى ، وكان عمله يتطلب قراءة أوراق كثيرة وعقود مملة ، ثم أنه كان فى دخيلة نفسه يبغى الاستفادة من هذا العمل بأن يجد فيه مادة لكتاباته ، ولكنه لم يجد إلا القليل . وعلى ذلك استقال بعد حين وانصرف إلى تحقيق نظرياته فى التعليم وعاد إلى فتح مدرسته .

اقتبس تولستوى نظرياته من قراءة روسو ولكنه ذهب فيها مذهباً متطرفاً كعادته فى أعماله . فروسو يرى أن الإنسان فطر على الخير ، وتولستوى يستنتج من ذلك أن البلاد الروسية المتأخرة عن أوربا هى أقل إصابة بمساوئ الحضارة ، وهى إذن صفحة بيضاء يستطيع المربون أن يخطوا عليها ما يريدون من وسائل التربية الصحيحة ،وأن أطفال الروس هم أكثر امعاناً فى الطهارة من غيرهم من الأطفال .

ومع كل هذه النتائج البعيدة يأتى تولستوى فى مجال العمل فيذهب إلى أبعد منها ، فهو يرى أن تلاميذ مدرسته هم الذين يعلمون مربيهم طريقة الدرس ، وينبغى ألا يجبروا على الذهاب إلى المدرسة بل يذهبون إليها من تلقاء أنفسهم عن رغبة لا رهبة ، بغير كراسة ولا كتاب ، كأنهم ذاهبون إلى عيد من الأعياد .

انشئت مدرسة اسنايا بوليانا فما لبثت أن افتتحت مثيلات لها فى أنحاء المقاطعة . وكان من الطبيعى مع كثرة هذه المشاغل ألا يؤلف تولستوى شيئاً فى تلك السنة وأن يرهق بالأعمال حتى ساءت صحته واضطر لأن يسافر فى الخريف إلى جنوب روسيا للاستشفاء ، وقد ظن أنه فى هذه المرة أصيب بالسل حقيقة .

فى أثناء غيابه حدث حادث كان له أثر كبير فى نفسه ، ذلك أن رجال الشرطة هاجموا قصره بأمر من الحكومة وظلوا يبحثون

وينقبون فى أوراقه وقد أزعجوا أهل القصر ولكنهم لم يجدوا ضالتهم وهذه أول مرة حصل فيهاإصطدام بينه وبين الحكومة .

فما إن عاد من استشفائه وعلم بالأمر حتى أرسل بالشكايات والعرائض إلى القيصر ، وأخذ يكتب رسائل شديدة اللهجة إلى صديقته وقريبته الكونتيسة الكسندرا الوصيفة بالبلاط ، وأخذت الكونتيسة تطيب من خاطره وقد أوصلت شكايته للقيصر ، الذى أمر حاكم الولاية بأن لا يتعرض للكونت تولستوى بسوء وظهر بعد سنوات طويلة أن رجال الشرطة كانوا يبحثون عن مطبعة سرية ظنا أن تولستوى يمتلكها وأنها طبعت منشورات وزعت فى ذلك الحين فيها نقد للحكومة وتجريح لأعمالها ، على أن تولستوى كان فى ذلك الحين يفكر فى مشروع آخر هو الزواج .

لقد أقدم منذ صباه أكثر من مرة على الزواج ثم كان يحجم فى اللحظة الأخيرة إحجاماً لا يليق بمركزه ولا بالفتاة التى كانت موضع تفكيره ، ولكن فى هذه المرة يظهر أنه كان أكثر عزماً . ذلك أنه منذ سنة ١٨٥٧ زار الدكتور بيرز أحد أطباء البلاط القيصرى وكان متزوجاً من فتاة هى ابنة أحد جيرانه فى أملاكه وكان يشاركها اللعب وهو صبى ، فوجد أن هذه السيدة لها ثلاث بنات فى سن الزواج ، الكبرى منهن وهى ليزا جميلة الوجه متناسبة القسمات إلا أنها وقورة ثقيلة الحركات بعض الشىء ، أما الأخت

الثانية وهى « سونيا » فكانت خفيفة الروح ذكية تقبل على القراءة وتؤلف قصصاً صغيرة وان كانت تقل عن أختها جمالا ، والصغرى منهن وهى « تانيا » لا تتجاوز السادسة عشرة من عمرها فى ذلك الحين وكانت مرحة للغاية تملأ الدار ضحكاً وصياحاً . وتأثر تولستوى بالأخت الكبرى وأخذ يكثر من الاختلاف الى الأسرة ولم يكن عندئذ شاباً بل هو رجل قارب الأربعين . ولم يكن بالرجل الجميل الصورة ، وكان فى ذلك الحين أقبح منه فى أى وقت آخر من حياته ، فقد أطلق لحيته وهى كثة غير منتظمة إذا كان شعرها خفيفاً فى بعض المواضع ، وكان أنفه الأفطس يعلو لحيته ومن فوقه عينان صغيرتان رماديتان براقتان ، على آنه كان بما له من مركز مطمح أنظار الأمهات . وعلى ذلك ظلت الأم ترحب بزياراته وهو يكثر من الاختلاف اليهم ويبدى إعجابه بالفتاة على أنه لم يقدم دليلا على نيته .

الواقع أن تولستوى كان يحب الفتاة ولكنه كان على عادته غير متأكد من نفسه ، والواقع أنه راغب فى الزواج ولكنه يخشى أن يغير الزواج من حياته . ومضت شهور وهو واقف عند هذا الحد يتنقل بين بطرسبرج حيث يكثر من زيارة الأسرة وبين ضيعته حيث يراسلها . وانتهزت الأسرة قدوم الصيف فقررت الذهاب إلى الريف وقررت الأم أيضاً أن تزور مع بناتها تولستوى

فى ضيعته وتمت هذه الزيارة . وكان يكتب فى مذكراته احساسه نحو ليزة وحبه لها ثم إذا به يعود فيسجل أنه يراها غير صالحة كزوجة ثم يعود فيسجل أنه يراها كريهة . وفى هذه الأثناء كان يتحول تحولا عجيباً نحو أختها سونيا ويرى أنها أجدر بأن تكون زوجة له . وشعرت سونيا بذلك وسرت فى أعماق نفسها ولكنها لم تظهر شيئاً احتراماً لأختها ، ولم يلبث أفراد الأسرة جميعاً إلا الفتاة ليزه أن لا حظوا هذا التحول وأخذت سونيا تجذبه إليها حتى فتحت أعين ليزا للحقيقة وقام صراع صامت بين الأختين .

طال الأمر حتى لم يعد أمام تولستوى غير أمرين إما أن يقدم على طلب الفتاة وأما أن ينقطع عن زيارة الأسرة . وفى ذات يوم قصد منزل الأسرة وطلب أن يقابل سونيا على انفراد وسلمها رسالة لتقرأها ثم ترد عليه . ومما هو جدير بالذكر آن لدينا جميع تفصيلات هذا الموقف ، فتولستوى كما هو معروف استمر منذ صباه يكتب مذكرات يومية ، وسونيا كذلك كانت تسجل مذكراتها اليومية و « تانيا » أختها كانت تقيد أيضاً مذكراتها اليومية .

هجمت ليزا على أختها تقول : ماذا كتب لك ؟ فأجابتها أختها : عرض على الزواج ، فصاحت بها الأخت : أرفضى فى

الحال . وأجهشت بالبكاء وتدخلت الأم ودفعت ابنتها سونيا نحو السلم قائلة : اذهبى وخبريه بجوابك .

تقدم إليها تولستوى متلهفاً وسألها ماذا ترين ؟ فأجابت وافقة بالطبع . وبعد لحظة كان أهل الدار يتقدمون إليها بالتهنئة ما عدا ليزا والوالد الذى كان يحب ابنته الكبرى أكثر من أخواتها .

٦

الحرب والسلم

انتقل تولستوى على أثر زواجه إلى طور جديد من أطوار حياته سواء فى معيشته أم فى نشاطه الفكرى . فزوجته كانت مولعة به ولكنها كانت من النوع الذى لا يسمح بالمشاركة فى الحب ، فما إن صارت سيدة قصر اسنايا بوليانا حتى بدأت تنظم القصر وترتبه كما ترى ، لا تسمح لقريباته فى التدخل بل لا تسمح لزوجها فى أى تصرف داخل الدار . وامتد هذا النشاط إلى خارج الدار أيضاً فحملت زوجها على أن يترك المشاغل غير المجدية فى نظرها مثل المدرسة ومخالطة الفلاحين ، ودفعته إلى العناية بتدبير أمور ضيعته وتنظيمها بحيث تدر عليهما ايراداً وافراً ، وخضع الزوج الذى ذاق لذة الزوجية وهو الرجل السريع الخضوع لشهواته وتسلطت عليه الزوجة تسلطاً كبيراً . وفى السنة الأولى من

زواجه جاءه طفله الأول من ثلاثة عشر طفلا جاءوه على مدى الحياة .

بعد سنة من زواجه عاد إليه حنينه للكتابة وكان عليه أن يتم قصة القوزاق التى وعد بها أحد الناشرين وقبض ثمنها مقدماً فأتمها ، ونشرت فى ذلك الحين ولاقت من الاقبال ما لاقته كتبه الأولى التى جعلته فى الرعيل الأول من كتاب روسيا .

ولكنه أخذ يشعر بأن عليه رسالة أكبر من ذلك فأخذ يفكر فى موضوع رواية عن أولئك الثائرين الذين دبروا مؤامرة فى أول حكم القيصر نقولا الأول ، ولكن أكتشفت تلك المؤامرة التى عرفت باسم مؤامرة الديسمبريين وعوقب المتآمرون ، وكانوا من كبار المفكرين ، شر عقاب .

ولكنه لدى دراسته لهذا الموضوع اتجه فكره نحو السنوات الأولى من القرن التاسع عشر فى روسيا ، ووجد نفسه مسوقاً إلى موضوع وطنى عظيم ، هو ذلك الهجوم الهائل الذى قام به نابليون على البلاد الروسية حين اقتحم أراضيها ووصل إلى عاصمتها موسكو ثم ارتد خائباً مقهوراً وهو المنتصر الذى لم يعرف الهزيمة من قبل ، وكان ذلك بدء النهاية وأفول نجمه ، كل ذلك لا لأنه وجد جيشاً أقوى من جيشه وأكثر عدة بل لأنه وجد شعباً أجمع على ألا يقهر .

ثم أراد أن يرسم صورة للهيئة الاجتماعية فى حالة الحرب حين يأخذ

الناس فى أحاديث قلقة مضطربة حول موقفهم من العدو وموقف العدو منهم ، فالطبقة العليا تخوض فى مثل هذه الأحاديث ولكنها لا تستغنى عن اجتماعاتها وملاهيها العادية من حفلات راقصة ومسارح وزيارات ونزهات والتمتع باللحظة السريعة ، وهذه اللحظة تبدو لهم أكثر سرعة وأجدر بأن تقتنص ، أما عامة الشعب فهم يخوضون فى هذه الأحاديث وهم منتظرون تلك اللحظة التى يسوقهم فيها الحكام للتضحية .

هذه موضوعات طريفة حقاً إن عالجها كاتب جدى ولكنها تبلغ منتهى العظمة عند ما يعالجها كاتب فى أوج نبوغه وتلك كانت حال تولستوى ، فإنه إذ يكتب هذه القصة يشعر بأنه مسوق بقوة خفية تدفعه إلى عمل عظيم خالد أمضى فيه سنوات خمس استغرقت كل مجهوداته ، وقد نشر القسم الأول من هذه القصة العظيمة الطويلة فى سنة ١٨٦٥ وسماها فى ذلك الحين باسم « سنة ١٨٠٥ » ونشر القسم الأخير فى نوفمبر سنة ١٨٦٩ واختار لها نهائياً اسم « الحرب والسلم » ولا تسلك القصة النسق الروائى المعروف من حيث بسط الموضوع ثم الوصول إلى النتيجة بل هى تسلك أسلوباً أقرب إلى الملاحم الشعرية التى أبدعها خيال الإقدمين أى كما فعل هوميروس فى الإلياذة و الأوديسة .

ليست الحرب والسلم قصة موضوع بذاته ينطوى على مجرى

حياة بعض الأسر الكبيرة بقدر ما هى تصوير لتيار حياة أمة فى فترة عصيبة من الفترات وفى أزمة من الأزمات التى تنتاب الأمم فتقضى عليها بالحياة أو الموت . وليس الموت فى الأمم كموت الأفراد ، معناه العدم والفناء ، وإنما معناه وقف الحياة فيها سنوات أو قرون بحيث لا تقوم بدورها فى الحضارة بالرغم من كثرة أفرادها وجدهم فى العمل . وغزو نابليون لروسيا كان من تلك الأزمات الشديدة التى تصاب بها الأمم لذلك كان طبيعياً أن يشعر بخطورتها جميع أبناء روسيا على تباين طبقاتهم وعلى اختلاف ما يستفيدون من صد المغير ، فالطبقة العليا تدافع عن أموالها وأملاكها وسلطانها ، والطبقة الدنيا التى لم تكن قد تحررت بعد ، لا تدافع عن غرض أو نفع مادى ، وإنما عن الأرض التى نبتت ونشأت فيها .

تلك القصة التى صاغها مؤلفها فى عمل فنى عظيم ليس له مثيل من قبل وربما لم يأت له من بعد مثيل ، ليست على قول تولستوى نفسه رواية قصصية ولا هى قصيدة ولا هى سجل تاريخى بل أنه اتخذ الشكل الأنسب للموضوع ، وهو لم يرد إظهار مساوىء العصر لأنه لم ير فى ذلك العصر من مساوئ أكثر مما كان فى عصره ، وهو لم يعلق أهمية على العظماء الذين اشتركوا فى تلك المأساة الدامية بل كان همه أن يظهر أن مجرى الحوادث كان أكبر من

تقديراتهم ، وأن يد الأقدار كانت تكيف الأمور وفق ما تريد لا وفق الخطط التي رسموها ، وقد وصف تولستوى ذلك باتقان بلغ أقصى ما يصل إليه البشر .

ومن ميزات تولستوى فى تلك القصة العظيمة أنه اقتطع الأشخاص من صور حية تعيش بجانبه من أفراد أسرته وأقاربه ورجال طبقته الذين يخالطهم بل من نفسه . فصورة «بيير» مثلا فيها الكثير من صورة تولستوى ، والفتاة ناتاشا الصغيرة المرحة هى على الأغلب صورة لتانيا أخت زوجته وان ذكر تولستوى أنه فى رسمها مزج بين الزوجة وأختها . ولقد تكون صورة نابليون مصورة بقلم ناقد يهمه أن يسجل النقائص ويتغافل عن المزايا ولكن يجب ألا ننسى أن المؤلف أراد بذلك أن يقوى من ملحمته الوطنية .

كانت حياة تولستوى فى السنوات الخمس التى كتب فيها روايته حياة سعيدة على الغالب ، فهو متفرغ لأبحاثه يقرأ كل ما يقع بين يديه من مذكرات ذلك العصر ورسائله وتدبر الكونتيسة أمور البيت فى حزم . ثم يملى عليها ما يدور بخاطره وتخلو إلى نفسها لتنقل ما أملاه بخط حسن . ثم يعود فيغير ويبدل وهذا دأبه دائماً ، فقد كان يرسل أحياناً برقيات إلى الطابع ليغير كلمة أو عبارة ، فتعود الزوجة إلى نقل الكتابة مرة ثانية . ولا ريب

فى أن عملها كان مساعدة جليلة وهى لم تكن تكتفى بمجرد النقل بل كانت تحثه على الكتابة واتمام عمله العظيم . ففى طبيعة تولستوى ما يدفعه إلى الهروب من العمل قبل إتمامه . ومع ذلك لم يكن تولستوى فى أعماق نفسه راضياً كل الرضا بل كتب أكثر من مرة فى مذكرته ما يدل على قلقه وتبرمه بالحياة التى يحياها . وكثيراً ما نجد فى مذكرته الخاصة التى اعتاد أن يخط فيها خطرات نفسه ودخائلها ما يدل على بدء الشعور بأن الحياة الزوجية ثقيلة الوطأة على نفسه ، فهو يقول « إن الحياة معها فى مكان واحد صعب على نفسى » ومع ذلك كان لا معدى له عن هذه الزوجة فهو إن لم يكن قريباً منها روحياً كان لا يستطيع الاستغناء عنها جسدياً وهو الرجل ذو الرغبة المتجددة .

٧

نزعات وتجارب

ظهرت للناس قصة الحرب والسلم فارتفعت شهرة كاتبها إلى أبعد ما تصل إليه شهرة كاتب فى بلاده ، وجاوزت حدود بلاد روسيا إلى الأقطار الأخرى من البلاد الأوربية وغير الأوربية وشرب الكاتب كأس الثناء حتى الثمالة . على أنه انتهى منها وهو

برمبها يود لو انتقل إلى عمل آخر أو يعود لو استطاع أن يتركها دون إتمام ، ولولا زوجته ومثابرتها لعدل عن اتمامها .

لذلك لم يكن غريباً منه أن رأيناه ينتقل إلى عمل آخر فيعود إلى فكرة تثقيف أولاد الفلاحين وتعود مدرسته إلى الظهور . وفى هذه المرة لم تكن الكونتيسة لتقف فى سبيله إذ أنها فى تلك الأثناء قد جاءته بخمسة أطفال نموا وبدأ تثقيفهم على يديها فكأنها والحالة هذه افتتحت مدرسة صغيرة ، ولم يكن يضيرها أن يلتفت زوجها إلى مسائل التعليم عله يشاركها فى تعليم أولادها .

بدأ هذا الاتجاه لمسائل التعليم بأن فكر فى وضع كتاب لمطالعة الأطفال فأخذ ، يطلب الكتب من فرنسا وانجلترا وألمانيا من هذا النوع ليهتدى بها وصارت حقائب الكتب تأتى تباعاً إلى اسنايا بوليانا وتملأ كل مكان وهو – الكاتب الكبير – ينصرف إلى قراءة هذه الكتب ويدون ملاحظاته ، وقد ترك أمور الزراعة نهائياً لزوجه التى غيرت وبدلت فى موظفى الزراعة لا سيما من كان منهم ذا زوجة جميلة .

ومن الغريب أن تولستوى كان يعنى فى هذه الفترة بأمور عدة لكنه كان لا يعنى بكتابة قصة من قصصه الخالدة. وقد أقبل على المطالعة فى نهم فقرأ الكثير من القصص الروسية القديمة ، وقرأ فى هذه الفترة أو أعاد قراءة مؤلفات شكسبير وموليير وجيته وجوجول

ثم أخذ فى تعلم اللغة اليونانية القديمة ، ولم تمض أسابيع حتى كان يقرأ بها مؤلفات الأقدمين وأظهر تقدماً غريباً عجب له أستاذه .

وأقبل بين هذا وذاك على القاء دروس على أولاده وفى مدرسة الفلاحين . ومن الغريب أنه كان برماً بالدروس التى يلقيها على أولاده لا يصبر إذا أظهروا قلة فهم ولا يغتفر خطأ لهم ، أما مع أولاد الفلاحين فكان صبوراً كثير العطف والحنان وكثير الاهتمام بما يحصله الأطفال .

على أنه كان من الطبيعى أن يستحثه أهله وجميع أصدقائه ويلحوا عليه فى أن يعود إلى التأليف وألا يترك ثمار موهبته العظيمة . ولذلك أخذ فى البحث عن موضوع يكتب فيه وصادف أن قرأ كتاباً فى تاريخ بطرس الأكبر فاتجه إلى اتخاذ حياة هذا القيصر الروسى العظيم موضوعاً . إلا أنه آثر أن يضع قصة تمثيلية فى هذا الموضوع وبدأ يجمع المذكرات الخاصة بذلك العصر ويقضى أوقات طويلة فى تلاوتها ، ولكنه كلما ازداد علماً بتفصيلات تلك الفترة من تاريخ روسيا كان يجد نفسه بعيداً عن العطف على ذلك القيصر العظيم . فهو ينظر إلى حياة هذا القيصر وأعماله نظرة الناقد ، ويرى أن الأصلاحات التى قام بها حين عمد إلى إدخال النظم والتقاليد الغربية فى روسيا لم تكن عملا جليلا بل كان فيها قضاء على فضائل الروس القديمة ، فهو فى

صف خصوم ذلك القيصر من النبلاء الذين عارضوه لا فى صف ومؤيديه و مناصريه .

وعلى ذلك طرح هذا الموضوع بعد أن شغل به سنتين وعدل عنه نهائياً .

وفى هذه السنوات شعر بعدة أمراض استشار فيها أطباء موسكو فكان يشكو تعباً فى عينيه وأرقاً ثم، عاوده الخوف من أن يكون مصاباً بمرض فى صدره، فكان يذهب فى الصيف للاستشفاء بجنوب القوقاز، وشرب لبن الأفراس المخمر الذى يسميه الروس « الخميس » وظلوا يعتقدون أنه من أحسن الوسائل للشفاء بل لقد اشترى فى تلك الجهة ضيعة ليذهب إليها فى الصيف وكان يذهب مع بعض أفراد عائلته أو معهم جميعاً إذ أصرت زوجه ألا تتركه وحده بعد ما كان منه فى رحلة سابقة من الاتصال بفتاة جميلة .

هكذا مرت السنوات التى تلت ظهور « الحرب والسلم » فى بحث عن موضوع لرواية جديدة وفى محاولة الفرار من الكتابة أهى طبيعة الفنان الذى أخرج كتاباً خالداً أن يقضى بعض الوقت فى الاستجمام من عمله ؟

فى سنة ١٨٧٠ حدث لدى أحد أصحاب الضياع المجاورة

حادث أثار أهل أقليم « تولا» وكان موضوعاً لتعليقاتهم وأقوالهم . ذلك أن رجلا كهلا من أصحاب الضياع أتى بقريبة فقيرة إلى داره بعد أن ماتت زوجته لترعى أمور الدار وكانت فتاة جميلة صغيرة السن ، فأحبها واتصل بها واتصلت به ولم يخرج هذا الأمر عن حد المألوف عند هؤلاء السادة ، وكانت الفتاة الساذجة تعتقد أن الرجل سيظل وفياً لها فى حبه ، غير أنه لم يلبث أن ملها فرأى أن يتخذ مربية جميلة لأولاده ، فأتى بفتاة فرنسية واتصل بها فتملكت من قريبته الغيرة وأخذت تعنفه على عمله . فطردها من منزله وظلت الفتاة هائمة فى المزارع ثلاثة أيام . وفى اليوم الثالث أرسلت إليه رسالة تستعطفه فيها فرفض أن يتلقى الرسالة فاستولى عليها اليأس وألقت بنفسها أمام قطار كان ماراً بالمدينة ، وانتشر خبر الحادثة فى سرعة البرق ودفع الفضول بتولستوى إلى أن يذهب إلى المحطة ، حيث كان يجرى التحقيق وشهد جثة الفتـــاة .

أثرت فيه هذه الحادثة ، وبظهر أنه رأى فيها موضوعاً صالحاً لقصة غير أنه لم يأخذ فى الكتابة بل ظل يفكر كيف يبتدئ موضوعه . وفى أحد الأيام كان جالساً يقرأ مجموعة قصص لبوشكين الشاعر الروسى فاذا به يقرأ قصة ابتدأها بقوله « بدَأَ المدعوون يفدون فى صبيحة العيد » ، فتأثر بهذه البداءة البسيطة

السهلة وقام لوقته إلى غرفة مكتبه وبدأ قصته الجديدة وظل يكتب ثلاث ساعات .

علمت زوجته فى المساء بأنه ابتدأ قصته الجديدة ففرحت لذلك فرحاً عظيماً ؛ فلقد كانت تقدر موهبته فى القصص تقديراً كبيراً وترى أن مجهوداته فى غير ذلك هباء وعبث وكثيراً ما سهرت الليالى فى إعادة كتابة هذه القصص حتى تكون صالحة للنشر . ونستطيع أن نتبين هذا المجهود لو وقع نظرنا على أحد كتب تولستوى بخطه فنشعر بما كانت تلقاه من تعب فى حل تلك الرموز .

كانت قصة الفتاة المنتحرة هى التى أوحت الى الكاتب موضوعه ولكن قصة أنا كرنينا بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد حادث عابر ، بل هى قصة أسرة بل ثلاث أسر ، وقصة مشكلة خطيرة هى مشكلة الزواج غير الموفق . فأنا كرنينا الفتاة المترفة الممتلئة حياة التى تعيش فى أرقى الأوساط التى عرفتها روسيا القيصرية وتختلط بأكبر أعضاء الهيئة الاجتماعية ، تتزوج من رجل متقدم فى السن كبير الجاه واسع الثراء ، وتقبل الزواج منه لأنها تود أن تعيش عيشة الترف التى تعودتها . أما الزوج فهو ينظر إلى زوجته نظر المتاع الذى يكمل به مظاهر جاهه وثرائه ، ولا تلبث الفتاة أن تشعر بحقيقة موقفها من هذا الزوج ولكنها لا تستطيع الخلاص ، وهى

فى الوقت نفسه أبية النفس لا تريد أن تخضع للظروف ، فتقدم على حب شاب من النبلاء وترى فى هذا الحب عوضاً عما تعانيه فى زواجها وترى فيه انتقاماً من موقف الزوج نحوها ، وتندفع فى هذا الحب اندفاعاً شديداً حتى تصير مضغة للأفواه ، وتهدد بالقضاء على مستقبل عشيقها ، فيحاول العشيق أن يتخلص من هذا القيد فاذا هجرها لم تجد بدا من الانتحار بأن تلقى بنفسها أمام قطار سائر .

ليس هذا هو كل موضوع القصة فهنالك قصة أسرة أخرى تمثل الزواج العادى إذ الزوجة مخلصة وفية ، والزوج رجل عابث لا يتورع عن الاتصال بنساء أخريات ، يعوضن ما فقدته الزوجة من جمال حين أكثرت من الأطفال وشغلت بتدبير أمورهم ، وإلى جانب ذلك وصف المؤلف حباً طاهراً يشب بين فتاة جميلة وبريئة وبين شاب من نبلاء الريف لا يعرف مساوئ حياة المدن أو هو يعرفها ويحتقرها ثم ينتهى هذا الحب إلى الزواج السعيد المتكافئ .

تلك هى الخيوط المختلفة التى ينسج منها المؤلف قصته فى مهارة عجيبة جعلت هذه القصة من أكبر المؤلفات الخالدة للكتاب الأوربيين . على أن تولستوى كعادته رسم صور الأشخاص من الحياة المحيطة به . فليس لقين فى القصة إلا صورة لجانب

من تولستوى نفسه ولعله خير جوانبه ، وفى انا كرنينا وفى حبها للسيطرة وشدة غيرتها على عشيقها فرونسكى شبه قريب بزوجته سونيا ، وفرونسكى نفسه صورة أخرى للمؤلف فى عصر من العصر ، فهى إذن قصة قائمة على حياته وحياة أهله فى اسنايا بوليانا وان كانت حوادثها قد صيغت بيد فنان من أكبر الفنانين الذين عرفتهم أوربا .

ومن عجيب الأمور أن كبار الكتاب المعاصرين له بل أكبرهما دستويفكى وترجنيف لم يقدرا هذه القصة حق قدرها فى مبدأ نشرها ، ولعل ما لقيته من إقبال وتهافت كان سبباً وعاملا شخصياً لديهما جعلهما يغمطان من قدر الكاتب العظيم ، فقد ذكر دستويفسكى فى رسالة إلى زوجته أنه علم أن تولستوى يتناول أجراً عن قصته هو ضعف ما يتناوله الكاتب فى صعوبة وإلحاح ، ويقول فى مرارة « ذلك لأنى أعيش من هذا العمل » وكان هذا القول حقاً .

وقد وصف لزوجته اجتماعاً حضره عند بعض الأصدقاء فقال «لم يقل أحد كلمة عن روايتى وكان من البين أنهم لا يريدون جرح عواطفى ولم يتحدثوا كثيراً عن رواية تولستوى ولكن ما قالوه يدل على حماسة عجيبة» وذكر أنه يرى انا كرنينا قصة مملة.

أما ترجنيف فقد ذكر فى رسالة أنه يعرف مقدرة ترلستوى

ولكنه اتخذ فى « اناكرنينا » اتجاهاً خاطئاً وأنها ليست عملا فنياً حقاً .

ومع ذلك لم يلبث دستويفسكى حين قرأ القصة كاملة أن نسى شكوكه وكتب يقول « ليس لهذه القصة من مثيل ، مَن مِن كتابنا يقارن بتولستوى ؟ وفى أوربا من كتب ما يقارن بها » ؟

وقد أبدى تشيكوف رأيه حين كتب لصديق « أمام الفنان أمران حل مشكلة وأظهار مشكلة فى صورتها الصحيحة والأمر الثانى هو وحده من واجبه : ففى اناكرنينا وأوجين أونيجن (لبوشكين) لا يحل المؤلف مشكلة واحدة ولكنه يرضينا ارضاء كاملا لأن جميع المشاكل موضوعة فى أصح صورة » .

لا ريب فى أن تولستوى كان يهتم لما يسمعه من ذم أو مدح فى قصصه لاسيما هذه القصة العظيمة . ولكنه كان لا ينفك يشعر برغبة فى العدول عن إتمامها ، فهو قادم على تحول كبير فى نفسه وفى آرائه .

٨

اعترافات

أن يكون الرجل واسع الضياع كبير الثروة ، ذلك أكبر ما يرجوه الناس فى حياتهم ، وأن تكون له زوجة محبة وأسرة فى نمو دائم فينعم بالمال والبنين ذلك أقصى ما تقف عنده آمال الناس ، أما أن يؤلف تلك القصص الخالدة فيبلغ بها ذورة المجد فى بلاده وتدر عليه إلى جانب ذلك أموالا لا حاجة به اليها ، فذلك ما يعمل له الناس فى حياتهم فلا يصلون إليه وقد وصل إليه تولستوى . ونحن ننتظر من مثله أن يكون هادئاً ناعم البال وقد بلغ فى القصة الى أكبر ما بلغه الكتاب فى ذلك العصر وكل ما بقى أمامه هو أن يتسابق مع نفسه ، ولو فعل لظل من أكبر كتاب القصة فى أوربا إن لم يكن أكبرهم ، ولكن لم يكن ليشغل فى الحياة ذلك المركز الغريب الذى وصل إليه .

فبينما كان تولستوى يحبر فى سنوات تسع أوراق « الحرب والسلم » ثم « أنا كرنينا » وقبل أن ينتهى من وضع هذين المؤلفين العظيمين كانت آراءه تتجه نحو وجهات أخرى من التفكير .

وآفاق جديدة ليس من شأن الروائى أن يغوص فيها وان كان له أن يلم بها وقد ألم بها تولستوى فى كتبه .

فقد أخذ يتجه فى البحث نحو الدين والكنيسة الروحية وكانت نفسه القلقة قد حاولت أن تجد فى الدين دعامة ترتكز عليها. فنجده فى هذه الفترة من حياته يقوم بزيارات لعدد من الأديرة الشهيرة فى روسيا، ويحاول أن يقابل رهباناً عرفوا بالتقى لكى يلقى عليهم أسئلة مما يدور فى خلده من مسائل دينية، لاسيما ما يتعلق منها بالحياة والموت . وهما مسألتان حاول تولستوى أن يعرف سرهما كما حاول غيره من كتاب . وان كان تولستوى قد تعمق فى وصفهما تعمقاً كبيراً وبخاصة فى كتاب الحرب والسلم وقصة موت ايفان إيلتش .

على أنه لم يجد لهاتين المسألتين من جواب وأنى له أن يجد ! إتجه فى بحثه نحو الأناجيل ونحو العهد القديم وحاول أن يقرأ هذه الكتب المقدسة فى لغاتها الأصلية . وكان قد تعلم اليونانية القديمة من قبل فأخذ يتعلم اللغة العبرية فى جد فى هذه السن لكى يستطيع قراءة العهد القديم فى لغته الأصلية . وكان فى أثناء قد أخذ يمل عمله الروائى .

ولاحظت زوجته هذا التحول فى نوع من الاضطراب لأنها كانت ترى أن شهرته روائياً هى أهم من كل شىء لاسيما بعد أن

اعترفت جميع الأوساط بنبوغه وتفوقه و بعد أن درت عليه قصصه من المال فوق ما يريد. وقد حدث فى ذلك الوقت أن أهدى اليه صديق كتاب المسيح للكاتب الفرنسى رينان فقرأه ولم يعجبه ، لأن ذلك الكاتب أراد أن يضع أساساً تاريخياً لتلك الحياة ولأن الكاتب الفرنسى أراد أن يقيم بحثه على أسس تتفق وما وصل إليه العلم الحديث ، وتلك طريقة لا تلائم تولستوى ذلك العهد الذى كان ذا نزعة صوفية على دقة بحثه .

هذه النزعة الدينية الصوفية انتهت به إلى أن أخذ سنة ١٨٧٩ فى وضع كتاب سماه الإعترافات . وهو كتاب نحا فيه نحو جان جاك روسو إلا أنه فى الواقع بعيد عن أن يكون فى مثل صراحته وان كان لا يقل عن الكاتب الفرنسى فى فنه . وهو كتاب نجد فيه صفحات جميلة من بلاغة تولستوى وبيانه كما نجد الكثير من متناقضاته فى تفكيره : « . . . . . . سأقص فى يوم من الأيام تلك القصة المؤثرة المفيدة عن السنوات العشر من سنى الصبا ، وانى لاعتقد أن الكثيرين قد جربوا مثل هذه التجربة فلقد أردت من أعماق نفسى أن أقصد الخير ، وفى كلى مرة حاولت فيها أن أعرب عن رغبتى الخالصة فى أن أكون صالحاً كنت أقابل بالاحتقار والسخرية ولكن بمجرد خضوعى لشهوات بهيمية كنت أمتدح وأشجع .

الطمع وحب السلطان والجشع وحب اللذة والكبرياء والغضب والانتقام كل هذه كانت محترمة .

فاذا ما خضعت لهذه الشهوات صرت شبيهاً بمن هم أكبر منى سناً وشعرت أنهم راضون عنى . . . . .

فى تلك السنوات ابتدأت الكتابة لمجرد الخيلاء والطمع والكبرياء وكنت فى كتاباتى مثلى فى الحياة . ولكى أحصل على الشهرة والمال وهما ما كتبت من أجلهما كان من الضرورى أن أخفى الخير وأنوه بالشر وهذا ما فعلت . وكم من مرة حاولت فى كتاباتى أن أخفى تحت ثوب عدم الاهتمام أو السخرية تلك الميول عندى نحو الخير ، وهى التى تجعل معنى للحياة ، وقد نجحت فى ذلك وكان جزائى الثناء .

وفى السادسة والعشرين من عمرى عدت إلى بطرسبرج بعد الحرب وقابلت الكتاب فقابلونى كواحد منهم وغمرونى بالثناء. وقبل أن يكون لدى الوقت لأنظر فيما حولى قبلت نظرتهم إلى الحياة. وهذه النظرات قضت على كل محاولاتى التى قمت بها لكى أحسن من نفسى وهذه النظرات كانت تسوّغ عيشة الاستهتار التى أحياها . . . . .

ومن عجيب القول أننى فهمت ما فى هذه الحياة من خديعة وأقلعت عنها ولكننى لم أنزل عن المرتبة التى وضعنى فيها هؤلاء

الناس وهى مرتبة الفنان والشاعر والعالم . ولقد خيل لى فى بساطة أنى شاعر وفنان وأستطيع أن أعلم الجميع دون آن أعرف ماذا أعلم وسرت فى هذا السبيل .

ومن اختلاطى بهؤلاء الرجال اكتسبت رذيلة أخرى هى الكبرياء الشديدة والاعتقاد الغريب فى أن مهنتى تعليم الناس دون أن أعرف ماذا أعلم . . . .

، هكذا عشت سنوات ست فى هذا الجنون حتى تزوجت وفى هذه الأثناء سافرت إلى الخارج ، فاقنعتنى الحياة فى أوربا واتصالى بالزعماء والعلماء من الأوربيين أن أومن بما كنت أعتقده من محاولة الوصول إلى الكمال إذ وجدت تلك العقيدة بينهم . وقد اتخذت هذه العقيدة الشكل الذى تتخذه لدى العدد الأكبر من المتعلمين فى هذا الزمن وهى التى يعبر عنها بكلمة التقدم . وكان يبدو لى عندئذ أن لهذه الكلمة معنى ، ولم أكن قد فهمت بعد أننى وقد شغلت ، ككل إنسان ذى شعور ، بالبحث عن خير وسيلة للحياة كنت أقول لنفسى : يجب أن أعيش وفاقاً للتقدم . وكنت كرجل فى قارب حملته الرياح والأمواج وسئل السوال الأول والوحيد إلى أين يسير فأجاب اننا نحمل إلى مكان ما .

لم ألاحظ عندئذ ذلك بل كنت أحياناً أثور ، بالغريزة

لا بالعقل ، على هذه الخرافة المنتشرة فى أيامنا والتى يخفى الناس وراءها عدم مقدرتهم على الفهم . فعلى سبيل المثال عند ما كنت فى باريس شهدت تنفيذ حكم الاعدام فثبت لدى عدم استقرار عقيدَتى الخرافية فى التقدم ؛ إذ عند ما رأيت انفصال الراس عن الجسد وسمعت صوت سقوط كل منهما فى الصندوق فهمت لا بعقلى بل بكل تكوينى ، أنه لا يمكن نظرية تفكيرنا فى تقدمنا الحاضر أن تسوغ هذا العمل . . .

ثم مضت خمس عشرة سنة من حياتى و بالرغم من أننى صرت أعتبر التأليف أمراً قليل الأهمية ظللت مدة هذه السنوات أضع الكتب . فلقد ذقت حلاوة التأليف وما فيه من مكافآت كبيرة مالية وما فيه من إعجاب كبير بعمل صغير . ووقفت وقتى عليه كوسيلة لتحسين مركزى المادى والقضاء فى نفسى على كل تساءل عن معنى حياتى أو معنى الحياة بصفة عامة .

وكتبت أعلم الناس ما كان يظهر لى أنه الحقيقة الوحيدة وهو أن يعيش الإنسان بحيث يضمن لنفسه ولأسرته خير ما يصل إليه من وسائل العيش .

هكذا عشت ، ولكن منذ خمس سنوات بدأ يحدث لى أمر عجيب : شعرت فى مبدأ الأمر بلحظات من القلق ووقف الحياة كأنى كنت لا أعلم كيف أعيش ولا ماذا أعمل ، وكأنى تائه فى

تدبير أمرى فأشعر بانقباض غير أنه كان يزول . وأعود إلى حياتى كما كنت من قبل. ولكن هذه اللحظات من الحيرة أخذت تتزايد على هذا النحو دائماً ويمكن التعبير عنها بهذين السؤالين لماذا هذه الحياة وإلى أين تؤدى بى ؟ . . .

لقد ذهبت الخدعة التى كنت أجدها فى لذات الحياة ومهما قيل لى إنك لا تستطيع أن تفهم معنى الحياة فاترك التفكير فيها واستمر فى معيشتك كنت لا أستطيع ذلك . فلقد عشت طويلا ولم أعد أستطيع إلا أن أرى النهار والليل يختلفان وهما يقتربان بى إلى الموت ، ذلك كل ما أراه وذلك هو الحقيقة الوحيدة وكل ما عداه كذب . أن نقطتى العسل اللتين كانتا تشغلان نظرى عن الحقيقة القاسية وهما حب الأسرة وحب الكتابة أو الفن كما أسميه لم تعدلهما حلاوة لدى . . .

ولكننى قلت لنفسى مرات عدة ربما إنى غفلت عن شىء أو لم أفهم شيئاً . فليس من المستطاع أن يكون هذا اليأس طبيعياً لدى الإنسان . وحاولت أن أجد جواباً لمشاكل فى جميع فروع المعرفة التى كسبها الناس . وبحثت طويلا بحثاً متعباً لا لمجرد الفضول ولم أبحث فى فتور بل بحثت فى استمرار بحثاً ممضا ليلا ونهاراً — وبحثت كما يبحث الغريق عن النجاة — فلم أجد » .

وعلى هذا النحو يصف وصفاً ممتعاً كيف التجأ إلى العلوم يبحث

فيها ليجد جواباً لهذا السؤال الذى كاد يؤدى به إلى الانتحار ، فبحث فى العلوم النظرية ثم بحث فى العلوم التجريبية فلم يجد جواباً لسؤاله ، فكان كرجل ضال فى غابة يتسلق إحدى الأشجار فيشرف منها على الأشجار الممتدة ولكنه يرى أن مقامه ليس هناك ، ثم ينزل إلى ظلام الغابة فتقصر دائرة رؤيته ويرى كذلك أن مقامه ليس هناك ، ثم يأخذ فى دراسة الفلاسفة ويبحث عن رأى سقراط وشوبنهاور وسليمان وبوذا فماذا يقول سقراط « أننا نقترب من الحقيقة كلما أخذنا فى مفارقة هذه الحياة ؟ إذن ماذا نجرى وراءه فى هذه الحياة نحن الذين نريد الحقيقة ؟ هو أن نتخلص من الجسد . فاذا كان ذلك هو الأمر فلماذا لا نكون راضين إذا ما جاءنا الموت ؟

العاقل يبحث عن الموت طول حياته وكذلك ليس الموت فظيعاً لديه .

أما تولستوى الذى يرى أن الطبيعة الداخلية للعالم هى الارادة ، وأن كل مظاهر الطبيعة إن هى إلا مظهر لهذه الارادة ، فيرى أن الرغبة فى الحياة إن هى إلا إرادة هذه الحياة ؛ لذلك كان القضاء على هذه الارادة معناه العدم ، وأن الفقراء من بنى الإنسان الذين أقلعوا عن الرغبة فى الحياة يكون هذا العالم لديهم بشموسه ونجومه كأنه العدم .

« وأما سليمان الحكيم فيرى أن كل ما فى الحياة خداع وغرور، فأية فائدة للإنسان من كل ما يعمله تحت هذه الشمس ؟ يذهب جيل ويأتى جيل والأرض قائمة إلى الأبد . وما كان ، هو ما سوف يكون ، وما عمل هو ما سوف يعمل ، وليس تحت الشمس من جديد . . . .

الأحياء يعلمون أنهم سيموتون والأموات لا يعرفون شيئاً وليس لهم من جزاء لأن ذكراهم سوف تنسى وقد ذهب حبهم وكراهيتهم وحسدهم ، ولم يبق لهم نصيب فى أى شىء فيما تحت الشمس .

تروى الحكمة الهندية أن سكيامونى وهو أمير شاب سعيد لم يكن يعرف المرض ولا الكهولة ولا الموت. وخرج ذات يوم فاذا به يرى شيخاً فقد أسنانه وتعثر فى مشيته. فسأل سائق عربته من هذا وكيف وصل إلى هذه الحال؟ فلما علم أن ذلك مصير جميع الناس أمر بالعودة إلى قصره ليفكر فى هذا الأمر. ومكث أياماً لا يرى أحداً ثم لعله وصل إلى حل يطمئن إليه فعادت إليه سعادته . وخرج مرة أخرى للنزهة فرأى مريضاً فلما سأل ما خطبه علم أن ذلك قد يكون مصير الناس فعاد تواً لقصره واحتجز نفسه أياماً ثم رجعت إليه بشاشته وعاد للخروج مرة ثالثة فرأى رجالا يحملون شيئاً فسأل ما هذا قيل رجل ميت فسأل ما معنى ميت فقيل له أن يصير الإنسان مثل هذا الرجل، فاقترب الأمير من الجثة وكشف

عنها ونظر إليها وسأل ماذا يحدث لهذا الإنسان قيل سيدفن فى الأرض ، فسأل لماذا؟ قيل لأنه من المؤكد ألا يعود للحياة وستأكل جثته الديدان فسأل الأمير هل هذا مصير كل الناس وهل يحدث هذا لى وتدفن جثتى وأكون غذاء للديدان؟ فلما أجيب بالإيجاب قال عودوا إلى القصر فلن أخرج إلى النزهة بعد اليوم وتقرر لدى سكيامونى أن الحياة هى أكبر الشرور وعمل على أن يتحرر من قيودها ويحرر غيره،حتى لاتجدد الحياة بعد اليوم بل تدمر إذن هذا هو الجواب ولا فائدة من الخداع ، أن كل شىء باطل وسعيد من لم يولد والموت خير من الحياة. ويجب أن نتخلص منها . »

أخذ تولستوى ينظرحوله ليرى كيف يطمئن الناس إلى الحياة ويخدعون أنفسهم ، فاذا هم أحد أربعة : جاهل لا يرى فى الحياة شراً بل يعتقد أن فيها كل الخير وأكثر هؤلاء نساء وشبان طائشون. ورجل لا يبتغى من الحياة إلا التمتع بألوانها وهو عالم بمصيره فيها وهؤلاء هم السواد الأعظم من أبناء طبقة تولستوى . وفريق ثالث يتبع طريق القوة والعمل المجدى إذا ما تبين له أن الحيــاة شر فيتخلص بحبل حول الرقبة أو بغير ذلك من وسائل الخلاص ويقضى على نفسه ولكن عدد هذا الفريق قليل جداً. ولقد حاول تولستوى نفسه أن يتبع هذا الفريق ولكنه عدل للسبب

الرابع الذى ذكره وهو شأن الضعف ، فهذا الفريق يرى سخرية الحياة وحقيقة موقفه منها ولكنه يتشبث بها وكأنه ينتظر أمراً. وذلك ما حدا . إلى أن يفكر، ويفكر لقد أدى به العقل إلى أن الحياة أكذوبة وزعم باطل كما أدى بكثيرين من قبل إلى هذه النتيجة. على أن العقل هو ثمرة الحياة وان كان العقل يرفض الحياة نفسها فلماذا إذن يعيش ملايين من الناس هل هم يعيشون بالعقل ؟ الواقع ألا ، بل هم يعيشون بالإيمان وهو يقول « كيفما قلبت هذا السؤال كان الجواب واحداً : كيف أعيش؟ أعيش وفاقاً لقوانين الشريعة الربانية . وما هى النتيجة الحقيقية لهذه الحياة ؟ إما العذاب الأبدى وإما السعادة الأبدية فما المعنى الذى لايقدر الموت أن يقضى عليه من الحياة؟ الاتصال بالرب الأبدى. إذن فإلى جانب الاستنتاج العقلى توجد معرفة لا تخضع للعقل وهى الإيمان ، وهذا الإيمان لا يوجد عند الجماعة الذين يلقبون أنفسهم بالمثقفين ولكنه يوجد عند العامة من الناس » .

وهكذا بدأ تولستوى يتصل بالفقراء والبسطاء وعامة الناس ويجد فيهم الرجال الذين يملأ قلوبهم الإيمان حقاً والاطمئنان إلى مصيرهم فى هذه الحياة أو فى الحياة الأخرى . وإذا كان المثقفون يديمون الشكوى من الأمراض وكل ما يعترض حياتهم من الأحزان والآلام فهؤلاء المساكين يقبلون المرض والألم دون

تململ أو اعتراض .وهكذا عرف كيف يحب هؤلاء الناس ويجلهم ويتبين له أن لا فائدة فى البحث عما هى الحياة، بل يجب أن يطمئن إليها راضياً ويقبلها مطمئناً .

٩

نزعة إلى الدين

من البين أن تولستوى حين شعر بهذه الأزمة التى انتابته ووصفها وصفاً رائعاً فى اعترافاته عزم على الإقلاع عن كتابة قصصه العظيمة التى رأى فيها هراء لا طائل من ورائه ولا نفع ، وقد اتجه بأفكاره نحو الدين وأقبل على الكنيسة وأخذ يزاول طقوسها لا تفوته صلاة، وأخــذ يقصد زيارة أضرحة الأولياء المشهورين كما أقبل على تلاوة الكتب الدينية، على أنه بقى بادى القلق مهموماً واتجه فى الدين اتجاهاً غريباً . واضطربت زوجته لما رأته من تغيير حالته وكانت تصفه فى تلك الأيام بأن نظرته صارت غريبة وثابتة ، وكانت تعجب لأمره وتسأله : لقد كنت فيما مضى قلقاً لأنك كنت بعيداً عن الإيمان فلماذا وأنت الآن مؤمن أراك غير سعيد ؟ وكانت الكونتيسة غير راضية لعدوله عن كتابة تلك القصص العظيمة التى رفعته إلى قمة الشهرة فى

بلاده وجعلته من أكبر كتاب العالم ، وكانت ترجو وهو لا يزال فى عنفوان قوته العقلية أن يستمر فى تأليف القصص فيزيد مجداً على مجد ، ولكنه اتجه إلى مباحث دينية عجيبة لا يمكن أن تكون لها الأهمية إلا لدى المختصين . وقد كتبت إلى أختها تصف انكبابه على القراءة وبحثه وتنقيبه عن الكتب التى تعنى بهذه المباحث والجهد الذى يبذله « وكل ذلك ليثبت أن الكنيسة لا توافق الرسالة المسيحية ، مع أنه لا يكاد يوجد فى روسيا عشرة أشخاص يهتمون بهذه المباحث. ولكنى لا أستطيع أن أعمل شيئاً وكل ما أرجوه أن ينتهى من هذا الطور فى أقرب وقت وان تزول هذه الحالة كما تزول الأمراض ». هكذا تكتب هذه السيدة مع أنها كانت تقية محافظة على شعائر الدين ، وهكذا وضع تولستوى مبحثيه الكبيرين فى نقد الفلسفة الدينية الرسمية والمقارنة بين الأناجيل الأربعة وتراجمها .

* * *

فى ذات مساء من شهر مارس سنة ١٨٨١ كان تولستوى واقفاً فى الطريق العام كعادته يتحدث إلى المارة القلائل الذين يطرقون هذا الطريق. وإذا سائل قادم من مدينة تولا ينبئه نبأ جديداً هو أن القيصر اسكندر الثانى قد قتل وكان هذا الخبر صحيحاً فان القيصر خرج فى عربة مكشوفة ليشهد عرضاً للحرس ، فاذا شخص

يتقدم ويلقى لفافة ورق تحت أقدام الجياد فيدوى صوت انفجار هائل وتصاب الجياد وبعض رجال الحرس. ونزل القيصر من العربة دون أن يصاب بشيء وعرض عليه بعض تباعه أن يركب عربة أخرى للحال ويتابع سيره ولكنه أبى إلا أن يرى الجانى الذى قبض عليه فى تلك اللحظة. وحينئذ ألقى شريك الجانى بقنبلة ثانية فتكت بالقيصر وحمل إلى قصره فى حالة سيئة حيث مات فى تلك الليلة.

كانتَ روسيا قبل قتل القيصر فى اضطراب سياسى ناشيء من نزاع دوى الآراء الحرة والمحافظين وكان تولستوى منهمكاً فى اضطرابه الدينى فلم يكن يعنى بالأمور السياسية، ولكن هذا الحادث أيقظه من سباته وأخذ يفكر فى مصير الجناة وما ينتظرهم من عقاب، فاذا به يمسك القلم ويكتب فى الحال رسالة إلى القيصر الجديد يرجوه فيها أن يعفو عن قاتلى أبيه، وفيها يخاطب القيصر الجديد بصراحة عجيبة قائلا: إنى أوجه إليك رجاء رجل لرجل، ثم يشير عليه لا يصغى إلى وزارته ورجال حكومته وأن يقلع عن فكرة الانتقام وأن يتبع شريعة العفو التى قال بها المسيح ويقول. «أنك يا مولاى لو فعلت ذلك ولو دعوت هؤلاء الرجال وزودتهم بالمال وأرسلتهم إلى بلاد بعيدة مثل أمريكا ثم تصدر إعلاناً بذلك مبتدئاً بالعبارة: إنى لأدعوكم إلى محبة

أعدائكم ، فأنى لا أعلم تأثير ذلك لدى الاخرين ولكنى أنا ، على قلة شأنى ، سأصير بمثابة الكلب لديك وأصير عبدك . . . أن كلمة العفو وإعلان المحبة المسيحية من أعلى العرش مما يفتح طريق الحكم المسيحى أمامك انتظاراً لمرورك وهذا العمل منك يقضى على جميع المساوئ التى تتألم منها روسيا ، ويذوب النضال الثورى كما يذوب الشمع فى النار أمام القيصر والرجل الذى يعلى شريعة المسيح . »

أرسل تولستوى هذه الرسالة العجيبة إلى رئيس المجمع المقدس ليرفعها إلى القيصر، وكان رجلا مثقفاً يجل الأدباء لا سيما دستويفسكى ولكنه كان أيضاً رجلا محافظاً يحترم القانون، ومن الطبيعى أن يحتجز الرسالة إلى أن أعدم المتآمرون ثم أعادها إلى تولستوى ، وكتب إليه قائلا إنى لم أحجزها اساءة فى حقك ولا عدم اكتراث بها، ولكنى رأيت آن عقيدتك فى جهة وعقيدتى وعقيدة الكنيسة فى جهة أخرى .

ويقال إن القيصر علم بالرسالة عن طريق آخر فأبلغ تولستوى أنه كان يغتفر هذا الاعتداء لو وقع عليه ولكنه وقع على أبيه فلا يستطيع أن يعفو مهما يكن الأمر، فالواقع أن هذه الرسالة لا يمكن أن تنتج نتيجة فى مثل تلك الظروف ، وهى أن دلت على شئ فعلى انصراف ذهن كاتبها فى ذلك الحين إلى نزعته

ومباحثه الدينية دون تقدير لمجرى الحياة ، والشيء الوحيد الذى يستخلص منها هو أن تولستوى كان إذا خطرت له فكرة أبدى شجاعة عجيبة فى التمسك بها والإعلان عنها دون أن يتقيد بملائمة الظروف ، وكان من الطبيعى أن الحرب الخفية القائمة فى روسيا بين النظام الرجعى والحركة الثورية العاملة على تحرير الأمة تقضى بألا ينتظر هؤلاء الثوار عفوا ، كما أنهم أقدموا على اقتراف كل جريمة فى سبيل تنفيذ أغراضهم .

تولى القيصر اسكندر الثالث عرش روسيا على أثر جريمة ، فكان من المنتظر أن يشتد ساعد الرجعية فى البلاد وأن ينكب بعد الجريمة أرباب الآراء الحرة . وكان نفوذ رجال الكنيسة الأرثوذكسية فى البلاد كبيراً ، واشتدت رقابة الشرطة على الناس وزاد عدد الجواسيس زيادة كبيرة وصارت الأحكام بالنفى والاعدام تصدر لأقل هفوة . وكان الرجعيون يرون أن أكبر الشر آت من أرباب القلم والمفكرين ؛ ولذلك اشتدت الوطأة عليهم وفى مقدمتهم ذلك النبيل الذى لا يسلك مسلك النبلاء فى تأييد الرجعية بل يعبر عن آراء خطرة يمجد فيها عامة الناس ويشيد بفضائلهم كما يعيب أبناء طبقته ويعدد مساوئهم ؛ لذلك منع الرقيب الدينى نشر اعترافات تولستوى عندما أراد نشرها على أنها كانت تنقل وتوزع وهى مخطوطة ، وفى كتابه الثانى المسمى

« عقيدتى » لم يستطع تولستوى أن يحصل على ترخيص بنشره ونشر طبعة خاصة لأصدقاءه، ومع دلك صادرت السلطات هذه الطبعة ، ولكنها لم تقض باتلافها بل أرسلتها إلى بطرسبرج حيث تخاطفهاالكبراء من الموظفين وصاروا يقرأونها ويتناقشون بشأنها فيما بينهم .

قد يقال إن تولستوى لم يكتب رسالته إلى القيصر انتظاراً لنتيجة عاجلة أو آجلة وإنما أراد بها مجرد الشهرة والظهور ، وذلك تفسير قد يتفق مع رأى الكتاب الذين رسموا له صورة فيها الكثير من السخرية ، ولكن الواقع أن تولستوى كان جاداً فى عمله وكان إذا استولت عليه فكرة أظهرها ونادى بها دون أى اعتبار آخر أو تقدير للظروف المحيطة به ، وكان هذا شأنه لا فى ارائه وحدها بل فى تصرفاته. لذلك نراه بعد شهرين من هذا الحادث يفكر فى الحج إلى دير أوبتينا بولين ، فيقوم مع تابع ومع مدير مدرسة قريبة وقد اتخذ ملابس الفلاحين فارتدى قفطاناً طويلا ، واحتذى نعلا فى قدميه العاريتين ، وسافر الجماعة إلى هذا الحج سيراً على الأقدام .وما انقضى يوم على سيرهم حتى كانت أقدام السيد قد تسلخت وهو لم يألف لبس النعال فى قدم عارية واضطر فى أول مدينة وصلوا إليها أن يشترى جورباً كما اشترى حزاماً من الصوف لوقاية جسمه. وكان تابعه يحمل حقيبة صغيرة فيها

بعض الملابس النظيفة.وظلوا فى رحلتهم الشاقة أربعة أيام ووصلوا فى مساء اليوم الرابع إلى الدير.ولم يفطن رجال الدير لهم فأنزلوهم مع السائلين وأبناء السبيل وسر. تولستوى لذلك غاية السرور ولكن لسوء حظه كان نومه مع صانع أحذية فى غرفة واحدة ، وكان الرجل كثير الشخير فلم يستطع الكونت أن ينام وأشار إلى تابعه بأن ينبه الرجل. ولما علم الرجل السر فى إيقاظه غضب وصاح : أتريد ألا أغمض عينى من أجل صاحبك الشيخ ؟

وفى اليوم التالى سرت اشاعة بأن الكونت تولستوى بين زوار الدير فبحث عنه الرهبان واكتشفوا أمره ، وعلى أثر ذلك دعى إلى العشاء مع رئيس الدير، واضطر إلى أن يرتدى ملابس نظيفة ، وبعد العشاء قيد إلى غرفة نوم عظماء الضيوف ، وكانت حوائطها مغطاة بالمخمل وفيها قضى ليلته وعاد فى يومه التالى بالقطار.

* * *

ظل تولستوى ردحاً من الزمن ينتقد الكنيسة ويريد أن يرجع بها إلى بساطة الدين فى عصره الأول ، وأن تتخذ الكنيسة تلك الآيات البينات فى الإنجيل على حرفيتها دون تأويل أو تفسير ودون ملاءمة بينها وبين الحياة الحاضرة وتشعبها . أو بعبارة آخرى يريد أن تنزل الكنيسة عن مركزها وسلطانها وسيطرتها فى الدولة منذ قرون. وكانت حملته شديدة على الطقوس الدينية ولكنه ظل

مع ذلك محافظاً على صلواته وصيامه، على أنه لم يلبث أن اعتقد بأنه لم يعد يستطيع أن يقتنع بالصلاة والصيام وهذه الطقوس، ففى ذات يوم كان فى صيامه فاذا هو يمد يده إلى طبق اللحم الموضوع أمام أولاده الصغار، وكانت تلك الحركة بمثابة إعلان للحرب بينه وبين الكنيسة الروسية .

١٠

الظلم الإجتماعى

سار تولستوى فى الطريق الذى دفعه إليه تفكيره فوصل إلى نتيجة عجيبة هى أن حياة الفلاح الجاهل خير حياة وأبعدها عن الشرور ، وأن الشر فى حياتنا الاجتماعية إنما هو ناشىء عن ذلك الشك الملازم للمعرفة والبحث مما تعارف الناس على تسميته بالثقافة. وهذه الثقافة هى التى يستطيع أن يحصل عليها طبقة من الناس أوتوا الغنى وسعة الرزق إما عن ميراث قديم وإما عن مجهود بذلوه فى اقتناص الثروة من أيدى المنتجين الحقيقيين وأمكنهم بالمال أن يسيطروا على هؤلاء المنتجين الذين هم أجدر منهم بالرزق . وصل إلى هذه النتيجة فى تفكيره ولكن ماذا عمل بنفسه بعد أن عرف هذه الحقيقة ؟

إنه يعتقد أن المال الذى يتمتع به مال مغتصب وأنه لم يبذل مجهوداً فى سبيله بل ورثه عن الآباء ولا ريب فى أن الأب الأول الذى اقتنى هذه الضياع قد استولى عليها عنوة بمجرد القوة وحرمها أناساً أضعف منه ، وأن الآباء الذين جاءوا بعده استعملوا الناس وسخروهم فى زيادة هذه الثروة ، والآن وقد اكتشفت هذه الحقيقة ماذ افعل لإصلاح هذه الحال؟ تلك هى المسألة التى وقف عندها تولستوى لا يدرى ماذا يفعل .

الدم الذى يجرى فى عروقه ، دم كبراء الأشراف الذين عرفوا عصر إيفان الفظيع ، ثم عاشروا أسرة رومانوف منذ تولت عرش القياصرة ، يناديه بأنه سيد عريق المحتد يجب أن يبقى سيدا ، ويحتفظ بكل مظاهر الجاه اللائقة بنبيل مثله ، وإذا كان العقل يملى غير ذلك ، فهل يغير العقل فى لحظة ما بناه الجسد أجيالا ؟

كل ما استطاع أن يفعله حتى الآن هو أن يختلط بحياة فلاحيه اختلاطاً يقابله هؤلاء فى الظاهر بالغبطة ، ولكنهم يقابلونه فى الباطن بالحذر . ألم يرثوا هم أيضاً منذ قرون وراثة غريزية أن السيد لا يتودد إليهم إلا لغرض هو الرابح فيه وهم الخاسرون ؟ أن هذا السيد ظل يقحم نفسه فى حياتهم ولكنه لا يزال يسير سيرة النبلاء فى حياته ، وكل ما عمله من عمل إيجابى حتى تلك اللحظة ، أنه أهمل واجباته كرئيس لأسرته وسيد على

ضياعه، ومع ذلك نراه يحاول دائماً أن يقنع نفسه أنه قائم بواجبه الأنسانى الجديد. فنى تلك السنة التى انتابته فيها هذه الأزمة النفسية يسافر إلى تولا ، عاصمة المقاطعة التى تقع فيها أملاكه ليشهد منظراً تعيساً هو منظر المنفيين ، ينقلون من سجنها إلى سيبريا ، وبذلك يزداد اطمئناناً إلى سوء النظام القائم . ولكن ألم يكن يمازج هذا البحث حب الاستطلاع والفضول الذى يجده السادة الذين لا عمل لهم ؟

ومع ذلك لماذا نذهب بعيداً : الم يأته فى ليلة فلاح مريض محمول إلى قصره فلا يبلغ السيد الحبر حتى ينتهى من الطعام ؟ نعم غضب السيد لذلك، ولكن ما فائدة غضبه إذا كان لا يستطيع أن يعمل شيئاً ؟ إنه فى حيرة من أمره لا يدرى ماذا يعمل لخير هؤلاء الفلاحين ، ولكن فى تلك اللحظة تنبئه زوجته فى حزم أن واجبه الأول هو التفكير فى خير أولاده؛ فقد بلغ كبار أطفاله سناً ينبغى لهم فيها أن يدخلوا المدارس الكبيرة ، ولذلك يجب على الأسرة أن تنتقل إلى موسكو وتقلع عن معيشتها فى الضيعة إلا فى شهور الصيف . ومن الطبيعى أن يخضع الفيلسوف لهذا الأمر . على أنه قبل هذا الانتقال يشعر بتعب فى صحته، ولعل جزءاً من هذا الشعور بالمرض ناشىء من تفكيره فى المتاعب المادية للانتقال ، ولذلك يقرّر فى صيف ذلك العام أن

يذهب إلى الضيعة التى اشتراها فى أقاليم الجنوب ليتداوى بلبن الأفراس ومعه بعض أولاده . وفى أثناء إقامته يبحث عادات تلك القبائل التى تعيش فى جنوب الفولجا ويتصل بفريق دينى يعرف باسم الملكانيين ، لهم فى بعض طقوس المسيحية رأى خاص . ثم يعود بعد ذلك من مصيفه إلى ضيعته ثم إلى موسكو حيث اتخذت الأسرة منزلا واسعاً انتقلت إليه مصحوبة بالخدم والحشم وخصصت للفيلسوف غرفة كبيرة ، ولكنه لا يجد فيها ذلك الهدوء الذى كان يجده فى قصره الريفى . وقد أخذت الكونتيسة ترتب حياة المنزل حسب مشيئتها وما يتطلبه مركز الأسرة ، فهى تحدد يوماً لزياراتها تستقبل فيه الزائرين من أهل طبقتها ، ويخضع الفيلسوف إلى حد أن يمضى أوقاتاً فى استقبال الزائرين ، وخضع الفيلسوف إلى حد أن ارتدى ذات مرة ملابس السهرة ، وذهب إلى حفلة اجتماعية كانت ابنته ستظهر فيها لأول مرة ، إذ بلغت السن التى يسمح فيها لأمثالها من الفتيات بارتياد هذه الحفلات . وخضع الفيلسوف لواجبه كرب للأسرة ، فذهب إلى المدارس يتفق معها على قبول أولاده . ولكنه كان مع ذلك ثائراً فى أعماق نفسه على هذه الحياة ، فهو من بعد ظهر اليوم يرتدى ملابس بسيطة ويتسلل من المنزل حيث يسير طويلا فى التلال

والغابات المحيطة بالمدينة ، كى يستطيع مخالطة العمال والعامة والتحدث إليهم .

هالته مناظر البؤس والشقاء فى المدينة الكبيرة أضعاف ما هاله فى بلاد الريف ، فالبؤس مهما يكن شديد الوطأة فى القرى ، فان مظاهره دائماً مختفية فى القرية تحت ثوب الاستسلام والرضا بما حكمت به الأقدار ؛ وهو دائماً يختفى فى الأكواخ لا يبين إلا للعين الفاحصة المتطلعة . اما البؤس فى المدينة فهو سافر ، تراه فى تلك المحافل من العمال تسير فى غير هدى تسعى لغير عمل ، أو تكد لعمل ضئيل ، وفى وجوهها علائم الفقر مرسومة ، وأكثر منها علائم القلق إذ هى لا تأمن شر الغد . وترى البؤس فى المئات من الرجال والنساء ذوى الأسمال البالية يمدون أيديهم للمارة يستجدونهم بضع دريهمات ، وتراه فى أولئك الأطفال أجسادهم تكاد تكون عارية وهم لا يعرفون لهم مأوى ، ويعيشون على ما يرميه الناس من مأكل ،وأسعد ليلة عندهم هى التى يجدون فيها ركناً من أركان أحد الأبواب ، يستترون فيه من برد موسكو القارص .

كانت هذه المناظر تحز فى قلب الفيلسوف أكثر مما رآه من مناظر رثى لها فى بيئته الأولى ، وكعادته كان يفكر فى استجلاء السر فى هذا الشقاء وكيف السبيل الى القضاء عليه .

ومن الطبيعى أن يكون برماً بحياته فى المدينة على اتساعها وهو الذى ألف العيش بين فلاحيه ، وعرف كيف يخدمهم بعض الشىء . ولذلك نراه بعد بضعة أشهر يشعر بتعب من هذه الحياة ، فيقصد زيارة صديق فى جنوب روسيا ، على أنه كان يرمى إلى غرض آخر هو زيارة ذلك الرجل الذى سمع عنه فى الصيف حين زار ضيعته فى الجنوب ، وكان اسمه سوتايف وهو فلاح أوتى الحكمة ، واعتقد فيه أهل تلك الفرقة المسيحية التى ذكرناها اعتقاداً راسخاً .

زار تولستوى هذا الرجل وأعجب به ، فدعاه إلى زيارته فى موسكو ، فلم يتردد الولى فى انتهاز الفرصة ، وما مضت بضعة أشهر حتى كان مقيماً فى منزل الكونت بلباسه العجيب من جلد الماعز ، وكان هذا الرجل أول أولئك الغرباء الذين أخذوا يفدون على الكونت ويستفيدون بضيافته ، وكانت الزوجة المسكينة التى لا تحفل بمباحث زوجها تتبرم بهم . وقد أطلقت عليهم اسماً إذ لقبتهم بالغامضين .

دخل سوتايف منزل الكونت الفيلسوف وهو يعتقد أنه ند لمضيفه ، كما أن المضيف كان يعتقد أن هذا القروى ند له . وكان منظر سوتايف مثاراً للدهشة فى الأوساط الاجتماعية من النبلاء وكبار القوم الذين لتصلت بهم الكونتيسة ، وعند ما

ترامت أخباره إليهم بدأوا يسألون عنه ، فكان الكونت يدعوه ببساطة لمقابلة هؤلاء القوم وكأنه كان يعتقد أنهم قد يتأثرون به ويؤمنون بنظرياته ، وكان هؤلاء النبلاء يتسلون بتوجيه الأسئلة إلى هذا الولى يستطلعون رأيه فى الأمور الاجتماعية فيجيبهم فى صراحة برأيه ، فمثلا أبدى سوتايف ذات مرة استهجانه لعادة اعطاء السائلين بضع دريهمات ، فسئل إذن كيف يكون الإحسان؟ فأجاب هو أن يلتقط الواحد منكم هذا الفقير ويؤويه فى داره كما يؤوى أحد أفراد أسرته ، وليأخذ كل منكم عدداً من الفقراء ، أكبر عدد ممكن ويؤويهم فى داره ، هكذا يكون العمل المفيد .

ذاعت شهرة سوتايف وتقاطر كبار القوم على دار الكونت تولستوى ليشاهدوه . وكسبت الكونتيسة كسباً اجتماعياً بأن صارت حفلاتها مزدحمة بالناس ، وصارت هذه الحفلات تعرف بين أعضاء الهيئة الاجتماعية باسم ليالى سوتايف ؛ فذعر حاكم المدينة من ذلك الموكب الطويل من العربات التى تقصد دار الكونت تولستوى ، وخشى الفتنة ، فأرسل ضابطاً يستطلع الخبر ، وغضب تولستوى لذلك غضباً شديداً ، إلا أن الخطوة التى خطاها الحاكم لم يكن لها ذيول ، لأن سوتايف لما رأى أن الأمر قد بلغ إلى هذا الحد أسرع بالرحيل إلى بلاده .

أثرت مناظر التعاسة فى تولستوى تأثيراً عميقاً فاتجه بمجامع

قلبه إلى دراسة أسباب تلك التعاسة وأخذ يقيد رأيه فى العلاج الذى يراه وأعلن هذا الرأى فيما بعد فى كتابه « ماذا علينا أن نفعل إذن » وهو فى هذا الكتاب يصل إلى النتيجة التى يلخصها فى قوله : « إننى عند ما أرى الآلاف من بنى الإنسان فى مخالب الجوع والبرد والانحطاط أفهم ، لا بعقل ولا قلب ، بل بمجموع ما فى من حياة ، إذ أنا وآلاف من أمثالى يأكلون أكثر من حاجتهم من طرى اللحم والسمك ، ويغطون دورهم بالأقمشة والسجاد ، ومهما يقل علماء العالم بضرورة ذلك ، فان وجود الآلاف من الجائعين فى موسكو هو جريمة ترتكب لا مرة بل دائماً ، وإننى بما أنا فيه من ترف لا أحتمل هذه الجريمة فحسب بل اشترك فيها .

هذا كان شعوره وهكذا كان تولستوى لا يستطيع أن يصبر على رؤية هذه التعاسة ، ولا يكاد يرى شيئاً لا يرضى به عقله وقلبه حتى يصيح مستنكراً .

ولقد حدث بعد سنة من اقامته فى موسكو أن قررت الحكومة تعداد السكان ، فكتب إليها متطوعاً فى العمل بحى سمولنسك وهو من أفقر أحياء المدينة ، وقد أراد بذلك أن يرى كيف يعيش سكان هذا الحى وإلى أى حد ينحط الناس نتيجة لأهمال الحكومة واستغلال الإنسان للأنسان ، وكم من مناظر فظيعة

شهدها وأسر تعيش فى أكواخ حقيرة تأبى الحيوانات أن تأوى إليها . وقد وصف حالة الجهل والذعر فى هؤلاء الناس حين قال « كانوا إذا ما رأونا يفرون حتى يتبين لهم أننا ما جئنا إلا لمجرد التعداد فيظهرون لنا دهشين ، وهم ينظرون إلينا نظرة الأرانب رأت كلاب الصيد قد تحولت إلى عمال للتعداد » .

من تجاربه فى هذا التعداد عرف الشقاء الحقيقى ، فليس هؤلاء الناس الذين يقفون فى الطرقات يستجدون المارة هم الفقراء حقاً الذين هم فى حاجة إلى المعونة ، بل الفقراء والتعساء هم ثلاثة أنواع .العاهرات والأطفال وأولئك الذين انحدروا فى سلم الحياة وهم أكثر التعساء عدداً ، وهم الذين يصعب أن يوصف لدائهم علاج ولا يمكن تغيير مركزهم إلا بتغيير أساسى فى الحياة الاجتماعية ، أما العاهرات فيمكن معالجة حالتهن بتغيير الفكرة القائمة نحو المرأة ، وأما الأطفال فيكون ذلك بتربيتهم على ضرورة العمل .

فالحالة الاجتماعية بأكملها يجب أن تتغير ويجب أن يشعر الناس بلذة العمل بدلا من أن يكون هدف الجميع فقراء وأغنياء الوصول إلى اللذة والتمتع من غير جهد ، وبذلك يسعى الفريق القادر على أن يسخر الآخرين فى العمل الذى يسعى أن يتخلص منـــه .

وقد بدأ يشعر أخيراً أن الإحسان ليس هو الوسيلة لمساعدة الفقير ، بل الوسيلة لذلك أن نعلمه العمل ونمهد له سبيله ، وكيف نستطيع أن يمهد له ذلك إذا كان الفاصل بينه وبين الفقراء كبيراً ، وإذا كان الغرض الأول الذى يرمى إليه الرجال من أبناء طبقته هو أن يتملكوا من المال أكثر ما يستطيعون !

إنه إذا أراد مساعدة الفقير حقاً فعليه أن يرفض الاشتراك فى ذلك النظام الاجتماعى الذى يضحى بالسواد الأعظم من الناس فى سبيل تمتع القلائل ، فهو يرى أن المال أساس الشر مهما حاول الاقتصاديون تسويغ التملك « فما دامت الهيئة الاجتماعية قائمة على تسخير إنسان آخر فان معنى المال كواسطة لتبادل المنتجات الناشئة عن العمل ، ليس إلا أنه خير وسيلة لاستغلال مجهود الاخرين » فهل للرق معنى آخر غير ذلك؟ « إن استعباد إنسان آخر قائم دائماً على أن هذا الرجل يفرض على الآخرين الخضوع لأرادته . . . فاذا كان إنسان يعطى نتاج عمله للآخرين دون أن يحصل على ما يكفيه من غذاء ، وإذا كان يسلم أطفاله للعمل المرهق ، وإذا كان يترك الأرض ويرصد حياته لعمل كريه فى سبيل اخراج أشياء لا رغبة له فيها كما يحدث أمام أعيننا فى العالم (وهو العالم الذى نسميه متمدناً لأننا نعيش فيه) فنكون

صادقين إذا قلنا إنه يقوم بهذا العمل فقط لأنه مهدد بالموت إذا لم يعمله » .

للاستعباد ثلاثة طرق أولها التهديد ثم العنف ثم الإجبار بأن تنتزع من الجماهير الأرض ومخازن الطعام ثم بأن يطلب منهم تسديد ضرائب لا يستطيعون الوفاء بها ولكى يستطيعوا، سدادها يقعون فى الرق . وهذه الطرق الثلاث جربت وتجرب على الفقراء واحدة بعد أخرى، فاذا عدل عن واحدة لجأ أصحاب السلطة إلى الطريقة التالية ، ومما يساعد على قبول الجماهير لهذا الاستعباد نظريتان : ما يسمونه بالدين الذى ينصح لهم بالعمل فى خدمة أولى الأمر ، وما يسمونه بالعلم الذى يقول إن واجب الإنسان نحو الدولة هو أهم من واجبه نحو بنى جنسه، وإنه من الواجب إجباره على العمل فى سبيل الدولة إذا امتنع عن ذلك ، فنرى حينئذ أن كل نوع من الرق يستبدل به نوعاً آخر .

* * *

نشر تولستوى هذه الآراء فى كتابه الذى سماه « ماذا علينا أن نفعل إذن » وهو كتاب بلغ فيه غاية التحمس فى شرح المساوئ القائمة فى الحياة الاجتماعية وبلغ فيه مبلغاً من الفن كبيراً . وقد تنبأ فيه بما يحدث فى روسيا لو استمرت الحال كما كانت إذ قال « مهما نحاول أن نخفى عن أنفسنا ذلك الخطر

البسيط الظاهر الناشىء عن صبر أولئك الذين نخنقهم فقد ينفذ صبرهم. ومهما حاولنا أن ننفى ذلك الخطر بوسائل الخداع والعنف أو المداهنة ، فان هذا الخطر يزداد فى كل يوم وفى كل ساعة وهو يهددنا منذ أمد بعيد . وقد نما هذا الخطر حتى صرنا لا نستطيع إلا فى صعوبة أن نحتفظ بأنفسنا فى قاربنا الصغير فوق البحر الخضم ، وهو يضرب قاربنا وينذر بأن يبتلعنا فى باطنه. فثورة العمال بما فيها من التدمير والقتل لا تهددنا فقط ، بل نحن نعيش فيها منذ ثلاثين سنة غير أنناا ستطعنا بوسائل وقتية أن نؤجل انفجارها وقتاً ما . هذه هى حالة أوربا وهذه هى حالتنا بل هى شر لدينا ، لأنه لا يوجد لها مخرج يفرج عنها ؛ ففيما عدا القيصر لا يوجد فى أعين جماهير الشعب مسوغ للطبقات التى تضطهده ، وهذه الجماهير ثابتة فى مركزها بمجرد العنف والحيلة ، وانتهاز الفرصة أى بسرعة الانتباه ، ولكن الكراهية لنا بين شر طبقة الشعب والاحتقار لنا بين خيرهم تنمو ساعة بعد ساعة » .

« . . . فالكراهية والاحتقار بين الطبقات المضطهدة تنمو ، والقوى الجسدية والاخلاقية فى الطبقات الغنية تضعف. والخداع الذى يتوقف عليه كل شىء قد بدأ يتهلهل ولا تجد الطبقات الغنية ما تعزى به نفسها عن هذا الخطر » .

«والعودة إلى الطرق القديمة مستحيلة واعادة المكانة التى قضى

عليها مستحيلة ، ولم يبق إلا شيء واحد لأولئك الذين لا يرغبون في تغيير طريقة حياتهم هو أن يؤملوا قائلين لتظل الأمور سائرة كما هي مدة حياتنا ، وبعد ذلك فليكن ما يكون » .

لا ريب في أن مثل هذه الآراء تتفق مع كثير من آراء أولئك الذين اتخذ رجال الثورة الشيوعية في روسيا كتبهم إنجيلا أمثال ماركس وإنجل وتتفق مع آراء القائمين بالثورة أنفسهم أمثال لنين وتروتسكى ، ولكن بأية قوة يعبر الفيلسوف الكاتب وأية صورة مفزعة يرسمها لحياة الطبقات الفقيرة إزاء ما ينعم به الأغنياء وما تتمتع به الطبقات الحاكمة . فهي في الحقيقة وقبل كل شيء صورة من رسم فنان ، يرى بعينه ما لا يتضح لأعين الناس ،ويستشف من وراء الحجب بعبقريته ، ما كان وما سوف يكون ، يرى ذلك الخضم الذى يداعب القارب الصغير ويوشك أن يبتلعه حيث لا نجاة .

وصف الفيلسوف العلاج لتلك الحال المحزنة فهو يشير على الطبقات الموسرة التي تتمتع بكل شيء ، وهو فرد من أفرادها ، أن تتقى الكارثة بأن تتدبر أمرها وتنزل عن متاعها بمحض الرضا ، بدلا من أن تجبر على ذلك أجباراً ، وهو علاج رجل أديب يعيش في عالم من الأحلام ، وعلاج رجل طيب القلب يثق بالإنسانية فهو رأى نظرى غير ما كان يفكر فيه ماركس وإنجل ولنين من ثورة عالمية .

١١

تلاميذ ومريدون

كان لهذا الانقلاب الكبير فى آراء تولستوى تأثير قوى فى مظهره، فهو على الرغم من قوة جسمه قد بدت الغضون فى وجهه وأخذ شعر رأسه ولحيته يميل إلى البياض . وكان أهم ما يشغله هو تطبيق تلك الآراء التى كانت تجيش فى صدره؛ فهو بطبيعته لم يكن من أولئك الذين يكتفون بالنظريات أو ينشرون آراءهم تاركين أمر تحقيقها للزمن ، بل هو فى تفكيره كان رجل عمل لاتساوره فكرة جديدة حتى يعتقد كل الاعتقاد أن تنفيذها من الممكنات ، ولذلك كان يعتقد أن الأغنياء لا يلبثون أن ينزلوا عن أراضيهم لفلاحيهم على أثر دعوته، وأنهم يقلعون بمحض اختيارهم عما ألفوه من ترف وملاذ ، وأنهم سوف يعيشون عيشة بسيطة هى عيشة الفلاح ، وحينئذ يشعرون باللذة حقاً وبرضا النفس . ولا ريب فى أن حماسته لفكرته كان لها تأثير عظيم فى نفوس الذين قرأوه وكان لبيانه أثر السحر فيهم .

وقد أخذت آراؤه تنتشر فى سرعة بروسيا وأوربا على الرغم من محاربة السلطات الحاكمة لها ، وكانت كتبه الأخيرة ، على أنها

لم تنشر إلا سراً تتخاطفها أيدى المفكرين من الشباب، وكان بعضها لا يستطاع طبعه فى روسيا فيطبع فى بلاد أخرى ثم يهرب إليها. وبدأ تولستوى يجد صدى لآرائه فى أفئدة الكثيرين، فيكتبون إليه الرسائل مؤيدين أو مستفسرين ويرد عليهم الفيلسوف شارحاً هذه الآراء. وجماعة من هؤلاء الأنصار والمريدين يلتفون حوله ليستزيدوا من آرائه وحكمته وينشروا هذه الآراء بين أصدقائهم. ولعل من أكثرهم أثراً فى حياة الفيلسوف فلاديمير شرتكوف، وهو شاب اتصل به فى سنة ١٨٨٣ ولم يكن شرتكوف من عامة الشعب بل هو من الطبقة الارستقراطية، فوالده قائد من قواد حاشية القيصر واسع الثراء، ووالدته من أكبر الأسر فى العاصمة الروسية، وقد تعلم شرتكوف نفسه فى مدرسة الضباط والتحق بالجيش وكان جميل الطلعة ظاهر النعمة، فتفتحت أمامه الأبواب وتنبأ الناس له بمستقبل باهر، على أنه فى سنة ١٨٧٩ أراد أن يستقيل من الجيش ويعمل فى الخدمة الاجتماعية، فتوسل إليه والده أن يحصل على إجازة لمدة سنة بدل الاستقالة فى الحال عله يعود إلى رشده ويظل فى عمله، فقام بتلك الاجازة وسافر إلى انجلترا فاذا عاد منها رغب إليه والده أن يستمر فى الجيش بعض الوقت. ويؤكد تولستوى أن شرتكوف كان فى أول زيارة مرتدياً ثوباً حربياً، وتحدث إليه الفيلسوف

شارحاً فكرته فى أن الخدمة العسكرية لا تتفق والمبادئ المسيحية، وفى الزيارة الثانية كان الشاب قد هجر الجيش وأخذ يحقق ما تصبو إليه نفسه من العمل فى سبيل الخدمة الاجتماعية ، ورأى أن خير سبيل لذلك هو أن يعمل على نشر آراء تولستوى ؛ فهو ما يمكن أن نسميه فى حياتنا الحديثة برجل الدعاية.وسنرى أثر شرتكوف بارزاً فيما بقى من حياة أستاذه .

لم يكن الفيلسوف نفسه أقل تأثيراً فى نفوس زائريه من كتاباته، فقد كان هؤلاء الزائرون يذهبون إليه وهم ينتظرون أن يروا رجلا محطماً أضناه طول التفكير فاذا هم أمام رجل وخطه الشيب، أجل، وبدا فى قامته شىء من الانحناء ، أجل ، ولكنه ملىء بالحياة لا يقتصر حديثه على الموضوعات الدينية والاجتماعية بل يسترسل فى الحديث فى كل موضوع ، وهو خلاب بطلاقته وفصاحة بيانه . ولقد رآه صديق فى تلك الفترة وكان قد عرفه فى أيام شبابه فعجب لما ظهر عليه من رقة فى معاملة الناس وقال إنه كرجل تجددت حياته إذ نفذ إلى نفسه إيمان جديد وحب جديد .

وقد كتب بيروكوف- الذى قام بنشر مؤلفات الفيلسوف باللغة الفرنسية وكتب ترجمة لحياته تعتبر الترجمة الأصيلة باللغة الروسية ، يصف كيف تعرف إلى الفيلسوف فقال « كنت قد تعرفت قبل ذلك إلى شرتكوف وتعلمت منه كيف يحب

مؤلفات تولستوى . . . وقد أنتظرت أن أرى فيه كهلا يقضى وقته فى دراسة مؤلفات رجال الدين من المسيحيين فوجدت رجلا طيب القلب مخلصاً ، فى بساطته سحر وجاذبية » وكانت الأسرة تشرب الشاى عند زيارة بيروكوف وتكلم تولستوى أولا فى تعاليم الرسل، ولكن الحديث انتقل إلى علاقة المهن واتصالها بالحياة المسيحية، فقال تولستوى فى بساطة : يستطيع كل إنسان أن يجمع بين تعاليم المسيحية وبين أية مهنة إلا مهنتى القانون والجيش. ثم نظر إلى ملابس بيروكوف وكان فى ثياب ضابط فى البحرية وقال معذرة لتفوهى بهذا القول أمامك. ولقد تأثر بيروكوف بهذا الكلام وخجل حتى لقد اعتزل عمله ولم يرتد تلك الملابس الرسمية من بعد .

لم يفقد تولستوى طول حياته قدرته على الضحك فى براءة وحماسة كما يضحك الشبان، ولا قدرته على تبيان عيوب نفسه والسخرية منها، وكانت تأخذه أحياناً روح المرح فيشترك فى الحفلات التى تقيمها زوجه ويرقص فى خفة قد يحسده عليها الشبان، وحينئذ يظهر كأنه قذف بعشرين سنة من عمره .

ومن بين الذين عرفوه ومالوا إلى تعاليمه جولدنفايزر وهو شاب موهوب وعازف على البيانو معروف ، كان قد شارك شليابن فى إحدى الحفلات الموسيقية بمنزل أسرة تولستوى بموسكو، فتأثر

بالفيلسوف وظل صديقاً له وتلميذاً طول حياته .

ومن بينهم ناظرة مدرسة اسمها مارى شميت قرأت كتب تولستوى فقررت أن تغير من حياتها وهجرت المدرسة التى كانت ترأسها ، وكان يقصدها الفتيات من علية القوم ، وامتنعت عن الذهاب إلى الكنيسة ورفعت صور القديسين من منزلها واستبدلت بهم صور تولستوى ، وصارت تكسب قوتها بنقل صور من كتبه الممنوعة وبيعها للناس ، ثم بعد قليل انضمت إلى تلك الجمعيات التى أخذت تنبث فى طول البلاد وعرضها ، حيث يعيش الناس عيشة بسيطة حسب الأسلوب الذى يدعو إليه تولستوى ويتركون سالف ثروتهم وترفهم .

وقد اتصل به المرمود مترجم مؤلفاته إلى الأنجليزية لأول مرة فى سنة ١٨٨٨ ووصفته الكونتيسة بأنه « رجل ضخم الجثة وجيه المظهر كان يرى من واجبه أن يتبعنى فى الوقت الذى أكون فيه ميالة إلى العزلة » .

ولعل أغرب تلاميذ تولستوى وأكثرهم تأثراً به أمير شاب هو البرنس هلكوف وهو لم ير تولستوى فى حياته ، ولكنه تأثر بكتابته فوزع أكثر أراضيه على فلاحيه وتطوع للعمل فى المصانع ، وكان يأبى أن يتناول أجراً طول المدة التى كان يشعر فيها أنه لم يتقن العمل ، فاذا أتقنه عين أجراً لنفسه وقد أعلن فيما بعد خروجه على الكنيسة

فنفى إلى القوقاز وفيها عاش بين تلك الطائفة من المسيحيين التى وصفنا اتصال تولستوى بها من قبل، وكانت الكنيسة تعتبرها هى والملحدين سواء، فرأت الحكومة نقله إلى منفى آخر فى ولايات البلطيق . وفى سنة ١٨٩٨ سمحت له بمغادرة البلاد فذهب إلى انجلترا حيث عاش بين جماعة من معتنقى مذهب تولستوى وتلاميذه .

أخذ نفوذ تولستوى يتزايد بمرور السنين فتألفت فى انجلترا وهولندا والولايات المتحدة وغيرها من البلاد جماعات تؤمن بتعاليمه وتريد أن تعيش حسب آرائه حياة بسيطة بعيدة عن الترف وتعتقد بالأصول الأولى للمسيحية ولا تتأثر بتعاليم الكنيسة القائمة ، ولم يكن تولستوى من المشجعين على تأليف هـذه الجماعات ؛ فقد كان غرضه الأكبر كما نرى من كتبه أن تنزل الطبقة العليا عن امتيازاتها وبذلك يصلح المجموع ويعيش الناس سعداء. لذلك لم يكن عجيبا أن تنحل تلك الجماعات التى تألفت ونمت وجعلت من هذه التعاليم نظاماً وطيداً. وقد صرح أكثر من مرة أنه لا يقر هذه الجماعات فى نظامها وكتب فى مذكراته بهذه المناسبة عند ما زاره رئيس هذه الجماعات فى بلاد المجر فقال «تحدثت إلى دوشان ولقد وضع نفسه على الرغم من إرادتى ممثلا لى فى بلاد المجر فأراد أن يستمع منى النصيحة فى الطريقة التى

يتبعها فانتهزت ، هذه الفرصة لكى أوضح هذا الأمر لنفسى وأبين له أن التحدث عن تعاليم تولستوى ، والحضور لديه للاستماع لنصائحه خطأ كبير ؛ فليس فى الأمر مذهب خاص أو تعاليم خاصة لتولستوى وليس فى الأمر إلا تعاليم واحدة هى التعاليم الحقة ؛ التعاليم الدائمة العامة التى بنيت أحسن بناء لى ولغيرى ، وهى فى الأناجيل . »

١٢

بين الأدب و الفلسفة

تغيرت آراء تولستوى فى الحياة والعالم ، فلم يعد يرى فى هذه الحياة غرضاً غير الاصلاح الاجتماعى ، وذهب فى فكرته إلى حد إنكار ماضيه واعتبار الآثار الفنية الخالدة التى زاد بها فى ثراء الأدب العالمى ، إن هى إلا نوع من اللغو لا طائل من ورائه وأخذ يحمل على ما يسمى بالفن ويرى أنه عبث يخفى عن أعين الناس حقيقة الحياة . وصار يعتبر أن أية كتابة يجب أن يكون غرضها تحقيق فكرة ، أما الأدب الصرف فلا قيمة له . ومن البديهى أن يخشى رجال الفن أن يفقد تولستوى مقدرته الفنية بعد اتجاهه الجديد. ولكنه ما لبث أن وضع مؤلفات تدل على

مقدرة فنية فائقة ، وتدل على أن الساحر لم يفقد عصاه وان حاول فى بعضها أن يرمى إلى مقصد غير المقصد الفنى . ففى سنة ١٨٨٦ نشر قصة « موت إيفان ايلتش » ثم نشر بعد سنتين الرواية التمثيلية «قوة الظلام» وفى السنة التالية لها قصتى « سوناته كر ويتز ر » و « الشيطان » .

ومع ذلك نجد لهذه القصص علاقة وثيقة بحياته الخاصة وآرائه الجديدة ؛ فقد وصف فى القصة الأولى حياة قاض من الطبقة العليا المثقفة عاش عيشة أهل تلك الطبقة لا يهتم إلا بنفسه ثم تحدث له حادثة تافهة تؤدى به إلى المرض الذى مصيره موت محتوم ، وهو فى مصيره إلى الموت يتدبر فى أمر نفسه ويعرض حياته التى قاربت نهايتها فيبدو له فى آخر الأمر أن السعادة الحقيقية فى انكار الذات والتطوع لخدمة الحياة الأنسانية ثم يموت غير تارك أى أثر فى نفس مخلوق .

لم يبلغ تولستوى فى قصة « سوناته كر ويتز ر » المستوى الفنى الذى بلغه فى القصة السابقة ، ولكنه مع ذلك أوجد تماسكاً فى جميع أجزاء القصة بمجرد الجو القاتم الذى وضعها فيه . وقد تولدت لديه فكرة هذه القصة من عدة عوامل : أولها أنه كان ذات مرة راكباً فى قطار فاذا أحد الركاب ينقض عليه ويأخذ فى رواية فصول من حياته المؤثرة ، وكان يقصها فى تأثر ظاهر وموضوعها خيانة

زوجه له ، وحدث أن زاره فى قصره الريفى الممثل الشهير بلجاكوف وألقى بعض الفصول المؤثرة المقتبسة من مؤلفات دستويفسكى بصوته الرنان والقائه البديع ، فأثار فى نفسه الرغبة لأن يؤلف قصة تكون ذات حوادث مؤلمة تصلح لأن يلقى الممثل منها بعض المنتخبات . ثم عزف فى أثناء هذه الزيارة أحد أبنائه مع معلمه فى الموسيقى القطعة الموسيقية « سوناته كرويتزر » لبتهوفن الخالد ، فأوحى ذلك عنوان القصة ووسيلة التقرب فيها بين العاشق والزوجة الخائنة .

وهى قصة يرويها زوج فى القطار ، كان متزوجاً من فتاة جميلة يعيش معها عيشاً رغيداً وأحاطها بكل أنواع الترف وهو تاجر ميسور الحال . وقد قدم إليها شاباً من أعز أصدقائه فصار هذا الشاب يختلف إلى البيت وتزداد صلته بالزوجة لا سيما بعد أن اكتشفا أنهما مغرمان بالموسيقى ، فيستطيعان أن يجتمعا للعزف معاً وكان الزوج كبير الثقة بالزوجة والصديق ، ثم أخذت عيناه تتفتحان لأشياء أخذها عليهما ، أو هى الغيرة بدأت تستيقظ فى نفسه ثم ملكت عليه حواسه فاذا هو يفاجئهما يوماً وهما فى غرفتهما فيقتل الزوجة ويهرب الصديق .

يرى بعض الناقدين أن هذه القصة كريهة بموضوعها وبالآراء التى أراد الكاتب أن ينشرها ، فهى تكاد تمجد ذلك النزاع الذى

ينشأ بين زوج وزوجته نتيجة لعامل كريه مثل الغيرة ، وهى تكاد تثبت أن هذا النزاع طبيعى فى الحياة وتنقله من مجرد حادث فردى إلى نظرية عامة وإلى مجال نزاع بين الجنسين الرجل والمرأة ؛ فالرجل قد تغلب من أقدم العصور على المرأة بقوته الجسدية فأوجدت الطبيعة فيها سلاحاً تدافع به عن نفسها هو المكر والخديعة . وإذن فالزوجان إذا ظهرا أمام الناس بأنهما يكمل أحدهما الآخر هما فى الحقيقة عدوان يتقاتلان كل بسلاحه ، فالرجل يحاول السيطرة بقوته والمرأة تحاول خداع الزوج لتنتقم لنفسها ولجنسها منه ، وهذا يحدث دائماً ولولم يرد الزوجان ذلك . ومثل هذا الرأى ظاهر الخطأ ولا يجب أن يكون فى الطبيعة وإن وجد فهو شاذ .

ومن العجيب أن يتجه تولستوى هذا الاتجاه وهو الذى كان قد سيطرت عليه النزعة الدينية ورأى فى معيشة آباء الكنيسة المسيحية المثل الأعلى لما يجب أن يكون عليه الرجل من طهارة وتقى ، ومع ذلك كان تولستوى زوجاً وله إلى ذلك الحين ما يقرب من ثلاثة عشر طفلا .

وليست هذه القصة فى مستوى قصصه العظيمة مثل «أنا كرنينا» و « الحرب والسلم » فتلك قصص جامعة تقتطع من حياة الإنسانية عصوراً بأسرها وتحلل هذه العصور وتحلل حشداً من

الناس تحليلا يصلح لكل الأزمان ، فأين منها هذه القصة التى يرويها رجل فى القطار وتدور حوادثها على رجل وزوجته وعشيقها ؟ على أنها مع ذلك تثبت تماماً أن تولستوى لم ينس فنه وإن اعتبر هذا الفن وسيلة للإعراب عن آرائه .

أحدث ظهور هذه القصة رجة صامتة ، فعند ما كتبها تولستوى لأول مرة وأراد قراءتها على أفراد أسرته ومريديه رأى بعض الحاضرين الذين أطلعوا عليها من قبل أن من الواجب ألا يحضر الفتيات قراءتها ووافقهم الكاتب على هذا ، ثم قدمت للرقابة فإذا أمر يصدر بمنع نشرها ، وبحثت الكونتيسة تولستوى سبب مصادرتها فتبينت لها أن ذلك كان بأمر القيصر . ولما كان الكثيرون من الذين سمعوا القصة أو قرأوها فى الطبعات السرية التى كانت تصدر دائماً إثر مصادرة مؤلفات تولستوى رأوا فيها ما يدل على تبرم تولستوى بحياته الزوجية بل إن زوجته نفسها شعرت بشىء من ذلك ، فقد أرادت أن تكون هى العاملة على رفع هذا المنع من نشرها . وذهبت إلى بطرسبرج لمقابلة القيصر فتحدثت إليها مبدياً استياءه من تطور تولستوى ونزعته نحو آراء مثيرة فى الأخلاق والاجتماع وابتعاده عن الكنيسة ، فأخبرته أنها تحاول العودة بزوجها إلى التأليف الأدبى والفنى ولذلك فإن منع قطعة فنية وإن كان فيها شىء من الآراء الغريبة قد يدفعه الى العودة إلى

كتاباته الاجتماعية والدينية ، فأعرب القيصر عن رغبته فى أن يعود الكاتب إلى أدبه إذ هو كاتب ممتاز حقاً . ثم أراد القيصر أن يجاملها فسمح بنشر القصة فى مجموعة المؤلفات ، وخرجت الكونتيسة مغتبطة لهذه الزيارة التى قابلها فيها القيصر خير مقابلة ، وهيأ لها زيارة للقيصرة بنفسه وذكرها للأخصاء فامتدحها ، وبلغها هذا المديح ، أما الفيلسوف فقد ضايقه سعى زوجته وقال فى رسالة لصديق: « لقد وصلت زوجتى أمس من بطرسبرج بعد أن قابلت القيصر وتكلمت إليه فى شأن مؤلفاتى لغير ما ضرورة ووعد بأن يسمح بنشر القصة فى مجموعة المؤلفات وهذا شىء لا يسرنى فلا بد أن هذه القصة تحتوى على جوانب سيئة ، لقد كرهتها أريد أن أنساها ، وكانت تتغلب على نزعات شريرة عند ما كتبتها ، وسأحاول أن أتجنب مثل هذه النزعات فى المستقبل » .

* * *

ذكرنا أن تولستوى أخرج فى هذا الوقت رواية تمثيلية هى «قوة الظلام» وهى قصة محزنة عن حياة الفلاح كتبها وهو طريح الفراش سنة ١٨٦٦ وبعد ذلك بقليل قام بتمثيلها بعض الأشراف فى بلاط القيصر ، ويقال إن القيصر أعجب بها إعجاباً شديداً ، على أن رئيس الأساقفة كاشف القيصر بأمرها ، وأخبره أنها

تظهر فلاحى روسيا فى مظهر غير لائق إذا ما مثلت فى غرب أوربا ، ونجح فى إقناعه بأن يصدر أمره بعدم تمثيلها . وهكذا ظلت بعيدة عن المسرح الروسى إلى سنة ١٨٩٥ . ولا ريب فى أن حرمان تلك البلاد من تمثيلها لم يكن عملا موفقاً ؛ إذ الواقع أنها مثلت على مسرح أنطوان بباريس سنة ١٨٨٨ ونجحت نجاحاً غريباً حتى صارت تمثل فى ثلاثة مسارح باريسية مختلفة فى وقت واحد ، وقد امتدحها زولا امتداحاً كبيراً وكتب برنارد شو لمؤلفها فيما بعد يقول «إنى لا أذكر شيئاً جذبنى فى جميع الروايات التمثيلية قاطبة ، مثل ذلك الجندى الشيخ فى رواية قوة الظلام ، وفى رأيى أن ذلك المنظر الذى نرى فيه السكيرين ، وهما طريحان على القش ، وأكبر المتشردين سناً يرفع الأصغر منهما فوق جبينه ، وأنا نيته ، هو منظر ذو تأثير عميق قلما تصل إليه هذه المناظر الخيالية » . ولا ريب فى أن شو تأثر فى مؤلفاته الأولى بتولستوى وطريقة عرضه لآرائه .

بعد ثلاث سنوات من تأليفه لهذه الرواية وضع رواية تمثيلية أخرى اسمها « ثمرة الثقافة » وهى نقد لفكرة البحث فى الروحانيات والعقلية التى تتجه إليه ، وفيها عرض ماهر لمسألة امتلاك الأراضى ، وقد نالت نجاحاً كبيراً عند تمثيلها فى المسرح القيصرى .

واتخذ تولستوى الرواية التمثيلية وسيلة لإبداء أفكاره فى « الجثة الحية » وقد وضعها فى نهاية حياته، ثم فى الرواية التى لم يتمها وهى « النور يضىء فى الظلام » وموضوع هذه الرواية حادثة واقعية وفيها يبين كيف يكون للقانون أحياناً مساوئ حين يتدخل فى الحياة الخاصة ، وذلك أن رجلا يمل حياته الزوجية فيرى أن يدعى الانتحار كى يبدأ حياة جديدة مع صديقة مخلصة كان يحبها منذ أمد بعيد ، وتتزوج الزوجة الأولى من رجل آخر ، وتعيش عيشة هنيئة ، وكلاهما واثق أنه انتحر حقيقة . ثم يظهر أنه لا يزال حياً ويتهمان بتهمة الزواج مرتين ، ويرى الزوج الأول بعد أن يعلم السعادة التى تتمتع بها زوجته ، أن لا سبيل لانقاذها غير الانتحار .

١٣

شقاق

لكى ندرك حياة تولستوى بين أسرته يجب أن نرجع قليلا إلى الوراء ، وإلى ذلك الزمن الذى تزوج فيه الضابط تولستوى وهو من أكرم الأسر الروسية وأقدمها ، من فتاة صغيرة ابنة طبيب . كان فى الرابعة والثلاثين من عمره وقد عرف الحياة

وملاهيها وملذاتها ، وانغمس فيما يأتيه الشبان عادة ، والجنود بنوع خاص ، من خمر ونساء وميسر ؛ وهى فتاة صغيرة لا تعدو الثامنة عشرة من عمرها ، لا تخلو من سذاجة ولا من دهاء . وتم هذا الزواج فدخلت فى تلك الأسرة العريقة ، وبدأت تتحمل تبعاتها بما يليق بالأسرة الواسعة الثراء ، وأخذت تدبر أمور زوجها وتحيا حياة بنات طبقتها ، بقدر ما يسمح به لسيدة مقيمة فى أملاكها الشاسعة بالريف .

أقبل الزوج على زوجته الصغيرة بما أثر عنه من مبالغة فى كل شىء يأتيه ، فكأنه يعاشر عشيقة لا زوجة ، وأحبت الزوجة رفيق حياتها حباً كبيراً ، زاده ما رأت فيه من استسلام وتركه الأمور لها ، وهى بطبيعتها ميالة للسيطرة فصارت ربة البيت بمعنى الكلمة ، فهى المتصرفة فى شئونه . ولم يلبث هذا الزواج أن أتى بثمرته وأخذ الأطفال يظهرون فى العالم تباعاً ، وكان من الطبيعى أن يترك الزوج ماضيه فلم يعد للخمر والنساء والميسر . وانتهج حياة جديدة واتجه للكتابة والتأليف فوضع تلك القصص العظيمة وكانت زوجته تساعده فتمضى الساعات فى نقل الرموز التى كان يسود بها الصفحات لكى تصبح صالحة للنشر. وكم كان هذا العمل شاقاً ولكنه كان لذيذاً لديها تقبل عليه راضية .

لم يكن فى هذه الحياة موضع للشكوى أو الشقاق بين الزوجين ؛ فهى مسيطرة على كل أمور البيت والضياع ، والزوج لا ينازعها فى ذلك ، وإن كان يتدخل أحياناً لينفذ بعض مشروعات اجتماعية تراها الزوجة خيالية ولكنها ترى أن لا بأس فيها . والزوج منصرف بوجه خاص إلى التفكير فى مؤلفاته القصصية التى تقدرها الزوجة حق قدرها وهما يعيشان فى رخاء .

لكن ما لبث الزوج أن هجر الكتابة ، وأقبل على قراءة كتب وبحوث غريبة وأخذ يقبل على موضوعات لا ترى الكونتيسة من ورائها طائلا ؛ وكانت الزوجة مسيحية متعبدة تقوم بواجبات الكنيسة وشاركها زوجها فى ذلك عند بدء نزعته الجديدة ، ولكنها كانت تنكر البحث فى أمور الدين ، وكتبت إلى أختها تذكر انكبابه على دراسة الأناجيل وترجو أن يمر هذا الطور على زوجها ويزول كما تزول الأمراض . ويأخذ الزوج فى دراسة اللغة العبرية لزيادة التعمق فى هذا البحث فلا تستطيع أن تخفى الزوجة استياءها مما تسميه غباوة لا فائدة فيها . وليس من العجيب أن تشعر الكونتيسة هذا الشعور إذ وقتئذ كانت فى شرخ شبابها وروعة جمالها ، تحب الشهرة والمجتمعات والثياب الجميلة ، على حين كان الزوج لا يمل المناقشة فى الديانة المسيحية والمذاهب الدينية .

ثم أسرع الزوج فى خطاه ، واقترنت فكرته الدينية بفكرة اجتماعية ، فهو يرى أن حياة الأغنياء لا تطاق وأنهم يستعبدون الطبقات الفقيرة ، ويسخروها لملاذهم ، ويرى أن الأمور تسير إلى ثورة لا يمكن اتقاؤها إلا بنزول الأغنياء من تلقاء أنفسهم عن ملاذهم وعن أموالهم المغتصبة من الفقير العامل ، الذى بذل فى سبيلها أعصابه ودمه .

ثم تقدم الزوج بعد هذه النظريات إلى زوجته يعرض عليها أن تنزل عن ضياعها الواسعة وأن يعيشا حياة بسيطة تتفق والتعاليم التى ينادى بها ، فماذا كان تأثير هذا الكلام فى الزوجة ؟ لقد وقعت فى حيرة من أمرها ودهشت لجرأته واستولى عليها الغضب وحاولت أن تكظم هذا الغضب فلم تفلح ، فكيف يضحى بسعادتها وسعادة أولادها أو ما ترى فيه السعادة ؟ آما الزوج فلم يفهم كيف تأبى زوجته تنفيذ ، فكرته وهو يكتب لصديق سنة ١٨٨٢ يصف حالته مع أسرته: « لا أعلم لماذا قدر على أن أرى غباوتهم ظاهرة فى حين هم لا يستطيعون أن يفهموا خطأهم. وهكذا تظل فى نضال دون أن يفهم بعضنا بعضاً ودون تعاتب بيننا ، غير أنهم كثيرون وأنا فرد واحد » .

لم يكن تولستوى فى يوم من الأيام كبير التعلق بأولاده الكثيرين ، وكان يترك أمرهم لزوجته فهى التى تحتضنهم وتقوم على

تربيتهم . غير أن الفيلسوف يتدخل بين حين وآخر فى أمر هذه التربية ليطبق فكرة من أفكاره ثم يعود فيهمل شأنهم . ولكن وجود الفيلسوف نفسه ، فى منظره المهيب بشعره الكثيف وملابسه البسيطة التى هى أقرب إلى ملابس القرويين ومروره فى غرف الدار ذهاباً وجيئة ، وهو ينتقل من غرفة نومه إلى بعض الغرف الأخرى لا سيما مكتبه ، وهو دائم التفكير تائه فى بيداء أفكاره ، لا بد أن يؤثر فى هذه الجوقة العديدة من الغلمان والفتيات ، الذين جاء بهم الفيلسوف إلى هذا العالم كما يجئ الهر بصغاره دون أن يدرى . وإذا كان بين هؤلاء الغلمان من يشبه أباه فى المظهر فلم يكن بينهم من يشبهه فى تفكيره . وكان تدخله أحياناً فى أمور أولاده يشبه تدخل العالم المجرب عند ما يريد أن يقف على نظرية فى حياة حى من الأحياء . وكان يهتم لأمورهم إذا ما أدركوا السن التى تفصل بين الطفولة والرجولة . ولعله كان يخشى عليهم تلك النزعات التى دفعت به فى مبدأ الرجولة إلى أن يأتى أموراً أبتها نفسه فيما بعد . وقد تزوج أكثر الفتيان فى سن مبكرة ، وكان زواج بعضهم موفقاً بعضهم غير موفق . ومما ساعد على أن يكون هؤلاء الفتيان من غير الساعين إلى الرزق أن أباهم فكر فى تطبيق نظرياته ولكن فى شىء من التعديل ، فقسم أراضيه وضياعه

الواسعة بين أولاده وزوجته ، فأثار هذا التقسيم منازعات بين الاخوة لا نهاية لها .

على أنه كان أكثر توفيقاً فى بناته ؛ فالكبرى منهن ، تاتيانا ، فتاة مهذبة تحب التصوير شديدة العطف على أبويها . والتى تليها ، ماشا ، أظهرت ميلا شديداً لمذهب أبيها فرفضت قسطها من ثروة الأب عند توزيعها ، وكانت تغسل ملابسها بيديها ، وأخذت تبحث عن مهنة فعملت ممرضة متطوعة ، وكانت إذا ما ذهبت إلى الريف أخذت فى العناية بأبناء الفلاحين ، فقارب ذلك بينها وبين أبيها واتخذها كاتبة له تقوم بنقل مسودات كتبه وترتب رسائله .

ثم تأتى الابنة الثالثة الكسندرا وكانت فتاة جبارة لا تخضع لغير مربيتها الإنجليزية . أما الصغيرة فكانت وديعة هادئة الطبع كثيراً ما تصاب بالأمراض .

* * *

هكذا كانت حياة تولستوى بين أسرته حياة يحسد عليها فى الظاهر ، فهو فى ثرائه الواسع وفى كثرة أولاده لا بد أن يكون محسوداً من الآباء ، وهو فى شهرته العالمية لا بد أن يكون محسوداً من الأدباء والكتاب ، ولكنه كان فى الحقيقة غير سعيد ؛ فالآراء التى اعتنقها ، والتى وجدت صدى غريباً فى نفوس الملايين

من أبناء تلك الأمة التعسة ، وجذبت إليه من أنحاء روسيا بل من أنحاء العالم جماعة من المتحمسين يعتنقون مذهبه ويسيرون على هداه، قد حملته عبئاً لا بد أن ينهض به، ووضعت على كتفيه ثقلا لا بد أن يسير به إلى النهاية . وكان ينبغى لكى يكون سعيداً أن يجد بين أفراد أسرته من يفهمه كل الفهم ، ويجد قبل ذلك فى زوجه أكبر مساعد له فى رسالته، ولكنه ويا للأسف لم تكن عند ظنه. فهى قد قدرت ما لزوجها من نبوغ حقاً حين كان زوجه يكتب تلك القصص الخالدة التى ظهر أثرها فيما تدره من مال يزيدهما ثراء فوق ثراء ، ولكنها لم تعد تفهم زوجها حين هجر القصة إلى تلك الكتابات العجيبة وتلك البحوث التى لا طائل من ورائها فى رأيها . ولا فائدة منها إلا تنغيص حياتها وحياة أولادها ، ولا يمكن أن يجنى منها الأديب ثمرة إلا أن صار مكروهاً من الكنيسة والدولة ، تنظر إليه الهيئات الرسمية نظرة الخوف والغضب .

لقد حاولت منذ لاحظت تحول زوجها إلى تلك الآراء أن تثنى زوجها عن السير فى الطريق الخطر الذى رسمه لنفسه فلما رأته يأبى إلا الاستمرار فى بحوثه ، عللت النفس بأن ما به إن هو إلا حمى عابرة ، فإذا هو يستمر فى سبيله ، وحينئذ لم يسعها أن تسكت ، وصارحت زوجها بالشكوى ولأول مرة رأت منه إعراضاً

وعناداً ، ولم تكن قد اعتادت منه الإعراض والعناد ، فبدأت بينهما تلك الحرب الخفية التى استعملت فيها أسلحة مختلفة . والغريب فى هذه الحرب أن كلا من المتحاربين كان لا يستطيع الاستغناء عن الآخر ، فهى ترى فى استمرار تولستوى على عناده ، دليلا على تحول قلبه عنها فتبكى وتصخب ، وهو لا يطيق فراق زوجته ، ولا يطيق مع تقدم سنه أن يجعل من علاقة الزوجية علاقة صداقة هادئة ، بعيدة عن ذلك الاندفاع الذى ينغمس فيه الشبان . وهكذا تسير بينهما هذه الحرب الخفية ، يتهادنان فيها وقتاً قصيراً ، ثم يعودان إليها فى أشد ما تكون .

لم يكن هذا النضال ليخفى على المحيطين به من أبنائه وبناته ولا على تلاميذه ومن الطبيعى أن ينقسم الأبناء فريقين فريق يؤيد الأم وفريق يؤيد الأب ، ومن الطبيعى أيضاً أن يكون التلاميذ جميعاً فى صف أستاذهم ، ويكون أشدهم تحمساً لآراء الفيلسوف أشدهم حملة على الزوجة . وهنا نفهم سر الكراهية التى قامت بين الزوجة وبين تشرتكوف أكبر داعية لمذهبه .

لقد رأت فى آرائه الأخيرة خطوة جديدة هى ميل زوجها عن حبها وزهده فى علاقتهما وهو الرجل الذى كان يندفع إلى زوجته اندفاع العشيق إلى عشيقته . وهو لا يزال يندفع أحياناً ، ولكن شيئاً فى عقله يقف حائلا دونها ، وينذره بأن نزعاته الجسدية نحو

الزوجة تحول بينه وبين تلك الرسالة التى يحاول أن ينهض بها لخير المجتمع .

وهو بلا ريب كان يشعر بأكبر السعادة فى هذه الزوجة التى تسهر على أمواله وضياعه ؛ ولكن هاتفاً فى نفسه يسائله دائماً : إنك تدعو الأغنياء إلى النزول بمحض رغبتهم عن أموالهم لكى يحققوا السعادة والعيش الرغيد لمواطنيهم ؛ فماذا فعلت أنت ؟ ستقول إنك تركت إدارة ضياعك الواسعة وانصرفت إلى رسالتك . أجل ولكنك تركتها فى يد أقدر منك على إدارة هذه الضياع الواسعة وتنمية الثروة لفائدة الأفراد القلائل من أولادك لا لنفع الفقراء والفلاحين كما تزعم . ثم إنك لا تكتفى ، بل تزعم بأنك تضع المؤلفات لخير الإنسانية ، ولكن هذه الكتب تدر عليك أيضاً من الربح الوفير وتزيد من ثرائك وتحجز المال عن الفقراء ، فماذا فعلت ؟

يقسو الهاتف عليه ولكن ماذا يفعل ؟ إنه لا يجد الشجاعة لانتزاع هذه الضياع من زوجته وأسرته المتزايدة ، ولا يستطيع أن يمنع الأموال المتدفقة من كتبه ولكنه ، يتخذ خطوة أولى فيعلن أنه نازل عن حقوقه فى كتبه الاجتماعية ، واهب هذه الكتب . وهنا تهب الزوجة مدافعة عن حقوقها وحقوق أولادها وتقوم بين الزوجين عواصف من الشقاق تهدأ حيناً ، ثم لا تلبث أن تعود أقوى مما كانت

تلتمس الزوجة وسائل عدة كى تحمل الفيلسوف على الإقلاع عن نزعته فإذا كان الكلام لا يقنعه فقد يكون الفعل أكثر إقناعاً . ولقد أوحى لها تفكيرها أن تجرب فى إقناعه فكرة الانتحار أو الظهور بهذا المظهر . ففى ذات ليلة من الليالى اشتد بينهما النقاش ، فجرت الزوجة إلى الغابة حيث خلعت ملابسها وارتمت على الثلج وهى تأمل أن تصاب بمرض يودى بحياتها ، فلما بحث عنها الأتباع وجدوها على هذه الحالة فحملوها إلى الدار، ولكن جسدها القوى لم يتأثر. وانتهت هذه الحادثة بالصلح بين الزوجين .

تكرر الخصام الكريه بين الزوجين ، وكان كريهاً لأنه كان ظاهراً أمام أعين جمع من الناس لا يتركونهما إلا وقت النوم ، فهنالك الأولاد العديدون وزوجات المتزوجين منهم ، وهنالك التلاميذ العديدون الذين أحاطوا بالفيلسوف وعاشوا فى ضيعته حسب تعاليمه و أكثر هؤلاء يؤيدون الفيلسوف فى وجهة نظره ، وهم متأثرون بارائه التى ترتفع إلى السماء ، ولا يشفقون على الكونتيسة التى تنظر لأمور الأرض .

ولعله مما يزيد فى قبح هذا الشقاق أن الفيلسوف تخطى مراحل الشباب وقطع من العمر ما يعتبر حدا لمرحلة الحياة . أما الزوجة فان لم تكن فى شرخ الصبا فهى لا تزال محتفظة بمسحة من جمال .

لم تفد محاولة الانتحار فى حمل الفيلسوف على العدول عن رأيه

فى النزول عن حقوق الطبع فى كتبه الأخيرة ، فهى تجرب وسيلة أخرى ما أقساها .

ذلك أنه وفد على قصرهم فى الضيعة عازف من الماهرين فى العزف على البيانو ، وكان شابا وسيما جميل الطلعة ، فأخذت الكونتيسة تتقرب إليه وقامت الألفة بينهما ، وأخذ الجماعة المحيطون بهما يتكلمون فى أمر هذه الألفة والألسنة تسترسل فى القول ، ولحظ الزوج نمو هذه العلاقة فى ألم كان يخفيه ولكنه ولا شك كان ملحوظاً لدى الذين من حوله ، وزادت كراهية الكارهين للزوجة .

أكانت هذه العلاقة حقيقة أم مجرد تظاهر من الزوجة ؟ إن الزوجة فى مذكراتها تؤكد أن العلاقة بريئة ، وهى بلاريب بريئة ، ولكن هل ننكر عليها إذا سعت وراء السعادة التى حرمتها بالروح إن لم يكن بالجسد ؟

انتهى هذا الحادث بأن طلب تولستوى ذات مرة من الموسيقار ألا يعود إلى داره مرة ثانية .

كان هذا النزاع بين الزوجين تعقبه فترات من الهدوء كما تعقب العواصف فترات من الشمس الساطعة ، ولكن موضوع النزاع لا يتغير . وفى إحدى هذه الفترات الهادئة وضع تولستوى نشرة صغيرة على سبيل المزاح وصف فيها نفسه وأسرته سماها

نشرة المرضى فى مستشفى المجاذيب بأسنايا بوليانا ، وفيها وصف نفسه بقوله . مجنون من النوع الهادئ يتوهم أنه قادر على تحويل حياة الناس بمجرد الألفاظ . وعلاماته المرضية أنه لا يرضى بالنظام القائم ، وينحى باللوم على جميع الناس ما عدا نفسه ، ثم ينتابه الغضب فلا يملك نفسه مهما كان شأن الحاضرين ، ويتحول سريعاً من الغضب والضيق إلى العطف والحساسية المليئة بالضعف . ومن علاماته الخاصة أنه يشغل نفسه بأعمال غير صالحة له مثل تنظيف الأحذية وصنعها وجمع الحشائش من الأرض . وخير علاج ألا يحفل جميع الذين يحيطون به بما يقول ، وأن يشغل بما ينفق فيه جميع ما فيه من نشاط . ووصف الكونتيسة زوجته بقوله هى أيضاً من النوع الذى لا خطر منه ولكن تنتابها أحياناً نوبات ، يجب فيها استعمال القوة معها ، فهى عرضة لجنون الغضب الشديد المصحوب بالصخب ، وهى تتوهم أن الناس يطلبون منها كل شىء وأنها لا تستطيع أن تفعل كل شىء . ومن علامات مرضها حل مسائل لم تقترح ، والإجابة على أسئلة لم تسأل ، والرد على اتهامات لم توجه ، وإرضاء مطالب لم تطلب . وعلاجها العمل الشاق والأكل الخاص والابتعاد عن حياة المجتمعات .

فى سنة ١٨٨٤ انتابت الكونتيسة أزمة شديدة أخرى وعادت

إلى اتهام زوجها والعمل على تنغيص حياته، وحاولت الانتحار مرة أخرى، وكانت فى ذلك الوقت قد قاربت أن تخرج إلى العالم طفلا صغيراً من أطفاله الكثيرين . ولا ريب فى أن العامل الأول فى هذا الخلاف دائماً مسألة النزول عن أرباحه من مؤلفاته ، وقد حاول مرات عدة أن يفهمها موقفه الذى لا يتفق مع ما ينشره من آراء حتى صار عرضة للنقد والتجريح ولكنه لم يفلح فى إقناعها . وأخيراً رأى أن محاولاته من العبث فوكل إلى الزوجة أمور أملاكه وحقوق الطبع فى كتبه التى نشرِها، قبل سنة ١٨٨١ وظن بذلك أن العاصفة هدأت ولن تعود .

١٤

مجـــد

انتهى قرن من الزمن وبزغ نجم قرن آخر وقد أربى تولستوى على السبعين، وهو الذى كان يظن وهو فى مقتبل العمر وشرخ الشباب أكثر من مرة أنه مصاب بمرض خطير . وكم من مرة اعترته أمراض ظن معها أنه لا يعيش ، وقد قطع هذه المرحلة من عمر بنى الإنسان وقد مسته الشيخوخة فى مظهره فتجعد وجهه وابيض شعره، ولكن قوته البدنية لم تصب بوهن ظاهر . فى هذه

السن أو قبل ذلك بسنوات قليلة تزوره إحدى تلميذاته من الأنجليزيات فيعلمها كيف تركب الدراجة . وهو فى هذه السن يلاعب الفتيان من أولاده فيسابقهم فى الجرى مسافات طويلة من غير أن يظهر عليه تعب ، وهو يعمل فى الحقول مع الفلاحين فلا يكل من العمل . وكان اسمه قد انتشر فى جميع أنحاء العالم وصارت داره فى اسنايا بوليانا مزاراً يحج إليه الأدباء والمصلحون وجميع الذين يفكرون فى خير الجنس البشرى ، وكان زملاوه من الكتاب الروسيين يعترفون بزعامته ؛ فالقصصى تشيكوف أمير القصة القصيرة كان كبير التعلق بالفيلسوف الهرم وكان على اتصال به ، وقد وصفه فى رسالة بقوله « إنى أعرف تولستوى وأعتقد أنى أعرفه جيداً ، وأفهم كل حركة من حركات عينيه ، وأحبه حبا حقيقيا » وأعرب لصديق عن مخاوفه عند ما مرض الفيلسوف مرضاً شديداً بقوله « إنى أخشى وفاة تولستوى ، فلو مات لترك فراغاً فى حياتى أولا لأنى لم أحب أحداً قط كما أحببته ، ولست من الذين يتمسكون بالعقائد ، ولكننى أعتبر عقيدته أقرب العقائد إلى نفسى وثانياً لأنه ما دام تولستوى بين الأدباء فمن السهل واللذيذ لدى أن أعيش كاتباً وإن لم أكتب شيئاً . ولست أكتب الآن شيئاً فليس فى ذلك إيلام لى ؛ لأن تولستوى كتب ما فيه الكفاية للجميع . ومؤلفاته تحقق الآمال التى تعقد على الأدب . ثالثاً

لتولستوى وقفة ثابتة وسلطان عظيم وما دام تولستوى حيا فان قلة الذوق فى الأدب والتفاهة فى كل نوع والاندفاع أو البكاء وكل ما هو عنوان للمظاهر سوف يظل بعيداً وخفيا ، وسيحتفظ سلطانه الأدبى للتيارات الأدبية بمستواها العالى فبغيره يكون الأدباء قطيعاً بلاراع أو خليطاً لا يمكن أن يجد فيه الإنسان شيئاً » .

ولم تكن شهرة تولستوى فى الأقطار المختلفة مقصورة على تلاميذه بل صار اسمه علماً معروفاً ثابتاً فى كل البلاد وكان العظماء من مختلف الأجناس إذا زاروا روسيا لا بد أن يعرجوا على الفيلسوف فى قصره ليروا أثمن درة فى تلك البلاد. ومن الذين زاروه من مشاهير الشرق الزعيم غاندى الذى تأثر بآرائه تأثراً كبيراً واقتبس منه فكرة المقاومة السلبية وطبقها تطبيقاً عجيباً شاملا فى تلك الحركات التى قام بها من أجل خلاص الهند. وعند ما اخترع أديسون المخترع الأمريكى آلة الفونوغراف رأى أن يهدى إحدى أعاجيبه إلى فيلسوف روسيا الذى أرسل له رسالة يعرب فيها عن سروره العظيم بهذا الاختراع ويشكره على هديته. وهكذا كان تولستوى فى أوائل القرن العشرين فى طليعة رجال الفكر لا فى أوربا وحدها بل فى العالم بأسره .

ولعله لم يبلغ أحد من الكتاب الذين عرفوا تولستوى فى حياته فى وصفه ، ما بلغ جوركى الكاتب الروسى الشريد الذى عرف

الشقاء وعاش بين الشريرين وامتدت به الحياة إلى أن رأى الثورة الروسية وصار من أكبر مؤيديها وزعيم أدبائها، فهو من بين الذين اتصلوا بتولستوى فى شيخوخته وعرفوه حق المعرفة وقدروا مواهبـــه وتأثروا بأفكاره، وإن كان قد عرف شيئاً من مواطن الضعف فيه؛ فهو يخبرنا أن تولستوى ما كان يهتم له إلا اهتماماً نوعيا ، أى كان يحب أن يدرس فيه رجلا ولد فى الشقاء وعاش فيه . على أن جوركى لم يهمل الجانب الإنسانى من تولستوى وتكلم عن قلبه الكبير وحبه للإنسانية وبساطته فى معيشته، ورسم له صوراً حية بديعة يصف فيها خصاله كقوله :—

« إنى لأذكر عينيه الناقدتين اللتين تريان كل شىء، وحركة أصابعه التى كأنها تصنع شيئاً من الهواء، وأذكر حديثه ونكاته وصوته الذى لا يمكن تحديد رنته ، وأقدر أى نصيب كبير كان لهذا الرجل فى الحياة وإلى أى مدى بعيد كان ذكاؤه الباعث على الرهبة . لقد رأيته مرة فى حال ربما لم يره فيها انسان عند ما ذهبت لزيارة جاسبيرا ، إذ بينما كنت أسير على شاطىء البحر رأيت رجلا ضئيل الجسم منحنى القامة قليلا فى ثيابه الرمادية وقبعته القديمة جالساً فى الطريق على مقربة من قصر آل يوسكوف وقد أسند خديه بكفيه، وبرزت نتف فضية من شعره تلوح من بين أصابعه، وهو يطيل التأمل فى البحر، حين كانت الأمواج الخضراء

تزحف إلى قدميه فى دعابة ، كأنها تروى قصتها لذلك الساحر القديم. وكان الجو تغطيه أحياناً أشباح السحب وهى تسير فوق الصخور ، فتضىء صورة الرجل الهرم بضوء الشمس ، ثم تعود إلى الظلام . وكانت الصخور كبيرة بها مغاور وتفوح منها روائح الأعشاب البحرية التى قذفها المد فى اليوم السابق ، ونظر هو إلى وكأنه قطعة من صخر قديم حى يعرف بدايات الأشياء ونهاياتها ، ويفكر متى وكيف يكون مصير أحجار الأرض أشجارها ومصير مياه البحر والانسان والعالم بأسره من الصخر إلى الشمس . . . فكأنى أصبت بجنون عجيب ، واعتقدت أنه من المستطاع آن يقف على قدميه ويشير بيده فيسكن البحر ويصير كالزجاج ، وتتحرك الصخور وتصيح ، وتدب الحياة فى كل ما حولنا ونسمع أصواتها وحديثها ، كل يتكلم بصوته عن نفسه وعنه هو ويتكلم ضده ، ولم تكن لدى من العبارات ما يعبر عما جال بنفسى فى تلك اللحظة ؛ فقد امتلأت النفس بالابتهال والخشية ، ثم انتقلت إلى شعور فرح ، إذ قلت لها لست الآن يتيما ووحيداً فى هذا العالم ، ما كان هذا الرجل موجودا فيه ، فتراجعت محاذراً وأنا أحاول ألا يحدث وطء قدمى للأحجار صوتاً وعدت من حيث أتيت لكى لا أقطع عليه سير آفكاره ... كنت أفسر تحيته حين يتلقانى بقوله سعدت صباحاً ، بأنها كلمة لعلها لا تسرنى

وليس لها معنى لديه ولكنها مجرد. تحية ثم يظهر هيكله الضئيل وإذاجميع الآشياء حوله تنكمش بالنسبةإليه، بلحيته المتدلية كلحية الفلاح ويديه الخشنتين العجيبتين وملابسه العادية وذلك المظهر الديمقراطى الخارجى الذى خدع كثيرين. فيلاحظ المرء كيف أن بعض الروسيين الذين اعتادوا أن يحكموا على الناس بمظهرهم ، وهى عادة قديمة تنم على العبودية ، ينتقلون إلى صراحة سافرة لعل وصفها بالتآلف هو أقرب للحقيقة . . .

« إذن أنت واحد منا. ولقد وجدتك. لقد صرت أخيراً جديراً بأن أنظر إلى وجه أكبر أبناء بلادى ، فاليك تحيتى الآن ودائماً وأقبل أكبر احترامى ... »

هذا هو الأسلوب الروسى لأهل موسكو بسيط وصريح، ولكن هنالك أسلوبا روسيا آخر هو الذى يستعمله الرجل الحر الفكر. « انى لا أستطيع الموافقة على آرائك فى الدين والفلسفة ياليف نقولايفتش، ولكنى احترمك كفنان كبير . . .

وحينئذ يظهر فجأة من ثنايا تلك اللحية المتدلية التى هى أشبه بلحية الفلاح وتلك السترة الديمقراطية المشوشة ذلك السيد الروسى العتيق الارستقراطى المحتد ، وحينئذ نجد هولاء الناس الذين تكلموا فى صراحة واندفاع وقد ازرقت أنوفهم من آثر برد قارس : وإنه لمن اللذة أن ترقب ذلك الجواد الأصيل فستلاحظ

علائم الرقة والنبل فى إشاراته ، وتتبين كيف يتحكم برقة فى الحديث ، وكيف يسدد الرماية بالعبارة المصقولة وكان فيه من صفات السادة ما يستطيع به أن يقف العبيد والمرائين . فاذا ما استيقظ السيد فى تولستوى ظهر فى سهولة وبساطة ووقفهم عند حدهم فاذا بهم لا يجدون أمامهم إلا أن ينكمشوا ويقبعوا فى أنفسهم .

لو أراد ليف نيقولايفتش أن يجذب أحداً لوصل إلى غرضه فى سهولة أكثر من امرأة جميلة ذكية . وكثيراً ما تمتلىء غرفته بخليط من الناس ، الغراندوق نيقولاى ميخائيلوفتش وإيليا المبيض الاشتراكى الديمقراطى من بلدة « يالتا » والسياسى باتسوك أو أحد الموسيقيين والمدير الألمانى لأملاك الكونتيسة كلاينميكل والشاعر بولكاكوف ، فتراهم جميعاً جلوساً وهم ينظرون إليه متيمين به فى حين هو يشرح فلسفة « لاو — تسى » لهم وكأنه جوقة موسيقية كاملة يقوم بها رجل واحد . . .. »

هذا وصف له من رجل كان من بعده فى طليعة كتاب روسيا وصار زعيما للأدباء فى عصر السوفييت .

١٥

فرار

من الطبيعى إذا ما بلغ المرء الثمانين وهى تعتبر مديدة فى حياة بنى البشر ، أن تهدأ نفسه ، وأن يستقر ما يهب من عواصف ثائرة ، وأن يترك أمور الحياة تسير فى طبيعتها ، وأن يعتبر أن رسالته فى هذه الحياة قد انتهت وأن المراحل التى قطعها لا يستطيع العودة فيها .

تلك طبيعة الإنسان . ومما يساعد على هذا السكون وهذا الاستسلام أن يكون قد نال قسطاً مما يعتبر فى هذه الحياة سعادة أو نوعاً من السعادة . وقد وفق تولستوى للسعادة بحسب مقاييس الناس أو هو لم يعرف غيرها ؛ فقد جاءه المال عفوا دون أن يسعى إليه ، ورثه عن أب عن جد ، وخلف ذرية كبيرة فعاش منعماً . وكان يستطيع ألا يعرف الشقاء إلا على أنه كلمة تدل على حالة يصاب بها بعض الناس ، ولكنه أوتى نعمة ، أو قل نقمة ، هى العقل ، فأبى إلا أن يعرف الشقاء ويدرسه بنفسه ، فبدت نتيجة ذلك فى مؤلفاته العديدة التى تكلم فيها فى موضوعات كان يرى

أقرب الناس إليه ، أعنى زوجته ، أن لا طائل من ورائها فهى لا تزيد المال ولا تجلب الشهرة .

لم يبق له وقد بلغ الثمانين من العمر إلا أن ينظر إلى الماضى فيجد أنه بذل جهداً جباراً، وأخرج للناس من روائع الأدب والحكمة ما قد يخلد اسمه دهوراً أما آن تنبت آراؤه الاجتماعية وتنمو ويكون لها آثر بعيد فى العالم ، فذلك موكول للأقدار، ولا يرجى منه بعد الثمانين أن يفعل أكثر من ذلك وعليه فيما بقى من سنوات معدودات أن يخلد إلى هدوء يشبه هدوء الذى يتفرج على قصة مسرحية فلا يتأثر بها لمجرد آنه يشعر بأنه يشهد قصة .

وليس من المفروض أن يشعر الإنسان بنهاية أجله مادام بعيداً عن وطأة مرض خطير ، والأمل فى الحياة والانخداع بها لا ينقطع ما دامت الحياة ، ولكنه قد يشعر بأنه قام بواجبه فلم يبق له إلا الراحة .

على أن تولستوى لم يكن من الذين يخلدون إلى الراحة وقد عمل كثيراً ووجد أنصاراً من كل جانب يسعون لتحقيق أفكاره، ولكنه كان يشعر فى قرارة نفسه بأنه لم يتبع تعاليم نفسه ، فهل نزل عن طيب خاطر عن ثروته ؟ إنه اتخذ مظهر الفقراء فى لباسه وفى معيشته أحياناً ، ولكنه يفعل ذلك كما يفعل الممثل ، لا كما فعل قديس مثل فرانسيس داسيزى مثلا، فهذا كتب ونشر بالوسائل

الحديثة وملأ الأرض صياحاً من أمريكا إلى الهند، وذاك لم يكن يملك من الوسائل إلا القول والمثل الذى يضربه للناس فى نفسه.

إنه يستطيع أن يزعم الآن بأنه وزع ثروته على أولاده وعاد هو فقيراً لا يملك شيئاً ولكن ما شأن تلك المبالغ الكبيرة التى تتدفق عليه من أرباح مؤلفاته وهى الحقوق التى تحاول امرأته وتجاهد فى سبيل الاحتفاظ بها ويريد أشد تلاميذه تعصباً لمبادئه أن يحمله على النزول عنها وتركها للأمة .

فهو فى هذه السن المتقدمة لا يزال يجد فى حياته مشاكل لا بد أن يحلها . ولعل أكبرها هذا الصراع القائم خفية ثم علانية بين الزوجة التى تفكر فى نفسها وأولادها وبين الأنصار من تلاميذه الذين اتخذوا آراءه مذهباً وأرادوا أن يحملوا أستاذهم على أن يتبع هذا المذهب وأن يكون أول من يطبقه .

ولقد صارت مسألة الوصية التى يوصى بها الأستاذ من أكبر موضوعات النزاع بين الزوجة وبعض وأولاده من جانب وبين التلاميذ وبعض بناته من جانب آخر . وقد ذهبت الزوجة فى هذا الصراع العنيف إلى حد خيف فيه أن تفقد عقلها نهائياً. وكان مجرد رؤية أحد غرمائها من المريدين أو البنات ولا سيما شرتكوف زعيم هؤلاء الغرماء مما يحدث لديها نوبة شديدة من الاضطراب والنواح. وفى وسط هذه الزوابع المتصلة يعيش الفيلسوف

وهو يترجح بين هذا الفريق وبين ذاك : هذا يجذبه وذاك يجذبه، حتى ليكاد يمزق بينهم وكأنهم زبانية الجحيم .

ولقد أدى به الأمر إلى أن أرسل ذات مرة إلى شرتكوف يطلب إليه أن يمتنع زمناً عن زيارته؛ لأن امرأته لا تطيق رؤيته. ولكنه فى الوقت ذاته اتفق مع شرتكوف سراً على تحرير وصية نهائية ينزل بها عن حقوقه فى مؤلفاته لصالح الدعاية لمذهبه . فى أحد الأيام ادعى الفيلسوف أنه ذاهب لنزهة فى الغابة وكان يستطيع إلى ذلك الحين أن يمتطى الجياد فقصد مكاناً معيناً سبقه إليه شرتكوف وبعض الشهود ، وهنالك وقع وصية قانونية نزل فيها عن حقوقه وجعل ابنته قائمة على تنفيذ الوصية وهو ما يتفق مع القانون الروسى ، ثم عاد إلى داره وقد ارتاح من إلحاح تلاميذه ، ولكن ضميره كان مثقلا لأنه حرم امرأته وأولاده حقوقهم . ولعل أشد ما آلمه وأثر فى نفسه أن رجلا مثله اعتاد الصراحة فى كل عمل يقدم تحت ضغط أنصاره على عمل بعيد عن الصراحة .

لم تلبث الزوجة أن علمت بما حدث وضاعفت الشكوى من تصرفاته ، وعزمت عزماً أكيداً على أن تستولى على هذه الوصية أو تثنيه عنها. ولكن كيف تستطيع ذلك وهو مرتبط فى ذلك الوقت بتلاميذ ، ولو أراد العدول عن وصيته لما استطاع .

كان شرتكوف الداعية أقوى إرادة من النبى الهرم فهو الذى يسيطر على تفسير مذهبه، وهو الذى يسطير على النبى حتى فى أخص تصرفاته .

أما الزوجة فهى تضج بالشكاية وتلتمس بوسائل العنف أو الحيلة أن تضع يدها على الوصية، وتضطهد الشيخ فى سبيل ذلك اضطهاداً كبيراً .

وكانت تشعر أن شرتكوف عدوها الألد، وهى تتهمه أمام جميع الخلائق وترميه بكل نقيصة، وتغرق فى ذلك حتى تتوعد بدس السم له .

وبلغ من حقدها أن دعت ذات ليلة كاهناً وأحرقت صور شرتكوف، ثم طلبت إلى الكاهن أن يطهر الدار من سحر الشيطان، فأخذ الكاهن بملابسه الدينية المزركشة يرتل الآيات ويرش غرفة تولستوى ومكتبه بالماء المقدس .

هذا شأن الأب والأم . أما الأبناء فانقسموا إلى معسكرين فريق يؤيد الأم ويرى أنها إن بالغت أحياناً فهى معذورة لأخطاء الفيلسوف، وفريق آخر يؤيد الأب أو لنقل إنه يؤيد شرتكوف. وعلى رأس هذا الفريق الأخير الكسندرا ابنة تولستوى التى كانت أكثر الأبناء شبهاً بأمها، وكانت صديقة حميمة لشرتكوف فهى وكيلة عنه فى هذه الدار التى دخلها الشقاق فجعل منها جحيماً

لرجل عظيم فى شيخوخته كان أحرى به أن يجد الراحة والدعة فى تلك الأيام الأخيرة .

أثرت هذه الحال فى تولستوى وقد جاوز الثمانين ، ففى ٣ أكتوبر سنة ١٩١٠ أغمى عليه ذات مرة ، وظنت زوجته وظن تلاميذه أن النهاية أشرفت ، فجاء شرتكوف إلى الدار فى خفية عن الزوجة لكى يأخذ فى تنفيذ الوصية ، وفاجأت الابنة الكبرى الأم وهى تحاول الاستيلاء على بعض المؤلفات المخطوطة لزوجها فحالت بينها وبين ما تريد .

على أن الفيلسوف ما لبث أن أبل من مرضه ، وكانت الابنة الكبرى قد اعتزمت مغادرة الدار ، فتوسلت اليها أمها ووعدت باحترام إرادة الزوج وعاد الوئام ، وذهبت الزوجة فى سبيل المسالمة إلى حد دعوة شرتكوف لزيارة البيت .

ومع ذلك لم يكن هذا الهدوء إلا ظاهراً ، فالزوجة لم تقلع عما اعتزمته من أمرها ، وتولستوى لا زال يشعر فى أعماق نفسه أنه لم يقم بواجبه ، وأن حياته إن هى إلا عراك دائم ، فهو يكتب فى مذكراته: « أجد الضغط الدائم والارتياب والتجسس ، وأجد من جهتى رغبة سوء فى أن تتيح لى سبباً للرحيل ؛ ثم أذكر مركزها فأرثى لها ولا أستطيع . . . . . كنت طول الليل أشعر بنزاعى الأليم معها . . . . . إنه لا يحتمل إنه لفظيع » .

حدث بعد ذلك أن زار الفيلسوف رجل من أحب تلاميذه إليه وهو الفلاح نوفيكوف فرغب ، إليه الفيلسوف أن يجد له داراً صغيرة فى قريته النائية كى يأوى إليها ويخلد إلى الهدوء ، وظل يخط فى مذكراته ما يشعر بالضيق من حالته وتبرمه بما أسماه الجاسوسية المحيطة به .

فى الساعة الثالثة من صباح يوم ٢٨ أكتوبر استيقظ فاذا به يسمع حفيف ورق ، فقام وقصد مكتبه ففاجأ زوجته وهى تبحث بين أوراقه ، وهو حادث بسيط كثيراً ما أتت ما هو أكبر منه ، ومع ذلك كانت الكأس قد طفحت فثارت نفسه اشمئزازاً وأشعل الشمعة ، فلما رأته سألته عن صحته فأجابها أجابة غامضة ، وتركت هى ما كانت فيه وعادت إلى مخدعها ، وقصد هو فراشه وتصنع النوم إلى أن وثق من نومها ، فقام وارتدى ملابسه وحمل فى يده حذاءه ومشى على أطراف أصابعه وقصد إلى غرفة ماكوفتزكى تلميذه وطبيبه فأيقظه ، ثم قصد إلى الغرفة التى تنام فيها ابنته الكسندرا وصديقة لهافأيقظهما وأنبأهما بعزمه على الرحيل وأن يعدا العدة لسفره .

وبينما كانا يفعلان ذلك أخذ يخط رسالة وداع لزوجته: « أعلم أن رحيلى سيحزنك وإنى لآسف لذلك. ولكن أرجو أن تفهمى وتعتقدى أن ليس ثمة سبيل آخر. فمركزى بالدار قد صار لا يحتمل.

ثم لا أستطيع بعد الآن أن أعيش عيشة الشرف التى ظللت أحياها حتى الآن . وإنى فى بساطة أقدم على ما أفعله فى مثل شيخوختى ، وهو الانسحاب من العالم لكى أقضى الأيام الأخيرة من حياتى فى هدوء ووحدة . أتوسل إليك أن تحاولى فهم هذا وإذا علمت مكانى فلا تتبعينى فمجيئك لا يغير من عزمى ويزيد مركزنا سوءاً ، وإنى لشاكر لك على ثمان وأربعين سنة شريفة قضيناها فى معيشة واحدة ، وألتمس منك أن تصفحى عن كل ما استحق عليه اللوم نحوك ، كما أنى أصفح بمجامع نفسى عن كل ما تستحقين عليه اللوم نحوى . ونصيحتى إليك هى أن تألفى هذا المركز الجديد الذى يضعك فيه رحيلى ، وألا تكنى أى شعور سىء نحوى . وإذا أردت أن ترسلى إلى شيئاً فاعطيه لساشا فهى ستعرف مكانى وترسل إلى ما هو ضرورى ، ولكنها لا تستطيع أن تخبرك بمكانى لأنها وعدت بألا تخبر أحداً » .

وخرج تولستوى فى الظلام الدامس ليأمر بأعداد العربة والجياد ، وفى طريقه اصطدم بشجرة أطاحت بقبعته ووقع فى حفرة بين الأشجار وعاد منهوك القوى ورأسه عار ، فأتت له ابنته بقبعة أخرى وخرجوا معاً إلى حيث العربة . وأخبرها الشيخ أنه سيقصد أولا زيارة أخته فى دير شامردينو ومنه يرسل إليها بأنبائه ، وركب العربة مع طبيبه ، وامتطى خادم جواداً وفى يده مشعل كى ينير

الطريق أمام العربة ، وسار الركب فى الطريق . أما الفتاتان فقفلتا عائدتين وكانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف من الصباح .

سارت العربة إلى المحطة ومنها ركب تولستوى وطبيبه القطار فى مساء ذلك اليوم إلى دير آوبتينا حيث أرسل الشيخ برقية إلى ابنته الكسندرا وأخبرها أنه سيواصل السفر فى اليوم التالى إلى مقر أخته وأمضى البرقية باسم مستعار حتى لا يعرف مرسلها .

وفى صباح ٢٩ أكتوبر لحق به رسول من شرتكوف أنبأه أن الكونتيسه ما علمت برحيله حتى حاولت الانتحار بأن ألقت بنفسها فى البحيرة .وقد عرضت عليها فكرة الانفصال فأبدت معارضة شديدة فى ذلك ، وأنها عازمة على البحث عنه واللحاق به

وكانت الكسندرا عند ما جاءتها برقية أبيها قد رأت أن تخبر أخوتها بفراره ، ولكنها كتمت عن الجميع مقره ولم تخبر أحداً غير شرتكوف .

شعر تولستوى على أثر هذه الأنباء بأنه مطارد ، ولكنه لم يغير من طريقه وقصد إلى مقر أخته ، وإن كان قد عزم على الايقيم فى جوارها طويلا . ولما قرع بابها فى مساء تلك الليلة كان متعباً روصف لها حالته والدموع تتناثر من عينيه فطيبت خاطره وعاد إليه هدوءه وعاد إلى التفكير فى المقام على مقربة منها .

ولحقت به الكسندرا وصديقتها فى اليوم التالى فامتعض لمجئ تلك الفتاة التى كانت تناضل أمها لا بسبب اختلافهما فى الطباع بل لقرب الشبه بينهما فكل منهما مندفع عنيف .

أثارت الكسندرا من مخاوفه مرة ثانية وزعمت أن مكانه لا يلبث أن يعرف ، وألحت عليه فى الرحيل العاجل فقرر الشيخ المسكين متابعة السفر مع أنه فى الواقع لم يكن قادراً عليه ؛ ولم يخطر للطبيب آن يعترض على هذا السفر بل لقد أمضى الليل فى لعب الورق مع تلك الفتاة الجبارة .

وفى الساعة الرابعة صباحاً أيقظ تولستوى رفاقه وكتب كلمة إلى أخته ينبئها بأنه يسافر فجأة خشية أن يكتشف مقره ؛ وأمضى ثلاث ساعات فى العربة التى أقلته إلى المحطة فى حين كان المطر والثلج ينهمر عليه فى جو عاصف .

فى المحطة ركبوا القطار وقد قررت الفتاة السفر أولا إلى رستوف أى أن تقطع بالشيخ نحو ألف من الكيلو مترات . .

انزوى تولستوى فى مقعده وقد ظهر عليه المرض وأخذ يرتعش برداً تحت ردائه السميك . وأخيراً لحظ الطبيب علائم المرض وقرر أن يتعرف مقياس حرارته فاذا هى مرتفعة ارتفاعاً كبيراً ، وكانت الساعة الرابعة مساء ومرت ساعتان وإذا حرارة جسده تتزايد ، وانزعج رفاق الشيخ وقرروا أن ينزلوا فى أول بلدة يقف بها

القطار ، ونزلوا فى أول بلدة وكانت استابوفو وقال تولستوى وهو يغادر القطار متكئاً على ذراع ابنته « لقد قهرنا فى هذه المسابقة فلا تتضايقى » .

قدم ناظر المحطة للضيوف غرفة فى داره إذ لم يكن هنالك مأوى آخر، وأعد للمريض سريراً متواضعاً، فاذا تم اعداده انتقل إليه الشيخ من المحطة وجئ بطبيب القرية وتعاون الطبيبان على فحصه وقررا أنه مصاب بالتهاب فى الرئة . وكان تولستوى قد أخذ يسعل وظهر الدم فى بصاقه ولكنه كان يسائل فى قلق: « هل نستطيع مواصلة السفر فى الغد ؟ » ثم ما لبث أن ازدادت حالته سوءاً ولكنه كان يصيح: « يجب أن نرحل . .. يجب أن نرحل قبل أن يدركونا » .

أخطرت الكسندرا شرتكوف بمرض أبيها، ولكنها لم تخطر أمها وكانت قد بدأت تشعر بخطورة الحالة، فأخطرت أخاها سرج وطلبت إليه أن يحضر طبيباً ماهراً .

أما الزوجة فلم تعلم بحال زوجها إلا من برقية أحد مراسلى الصحف الذى تطوع فأخبرها بحال زوجها ومكانه ، فسافرت مسرعة فى قطار خاص مستصحبة ابنتها تاتيانا وابنيها ميخائيل وأندريا.

وفى اليوم التالى كانت أنباء فرار تولستوى ومرضه فى جميع الصحف ، وصارت هذه القرية الصغيرة موضع اهتمام العالم ، وهرع

إليها الأقارب والأصدقاء ورجال الصحافة والمصورون ورجال السينما، وإذا هذا المريض الذى كان ينشد الوحدة ويود آن يقضى أيامه الأخيرة فى هدوء ، يمضى تلك الأيام الأخيرة وسط زوبعة من الإعلان لم يسبق لها مثيل حيث ينقل البرق انباءه ساعة فساعة إلى جميع العواصم فى أوربا وأمريكا .

وصلت الزوجة إلى مقر زوجها المريض، ولكن الابنة والمزيد حالا دون مقابلتها له وظلت المسكينة مقيمة فى القطار الخاص ولم يسمحوا لغير ابنتها المرافقة لها فى دخول البيت ، ولم يعلم تولستوى أن امرأته مع ثلاث من أبنائه يحومون حول البيت الذى رقد فيه .

قضى تولستوى ليلة ٣ نوفمبر فى اضطراب وان خفت وطأة الحمى. فاذا أصبح الصباح تنبه قليلا إلى وجود ابنته تاتيانا فسألها عن أمها فأخبرته بأنها تود لو تدعى إلى سرير مرضه فلم يجب . وبعد زمن قصير طلب إلى الكسندرا أن ترسل برقية إلى أولاده كى يحولوا دون مجئ أمهم إذ أنه يشعر بضعف فى قلبه وقد لا يحتمل رؤيتها .

وكان أهله المحيطون به فى اليوم التالى يترددون بين الخوف والأمل وهم يسهرون على راحته، بينما الزوجة تراقبها ممرضتان لتحولا بينها وبين الدخول ، تختلس النظر من خلال النوافذ أو

تبث شكواها لمن يرغب فى سماعها ، أو تقف للمصورين وهى واقفة على عتبة الباب كأنها خارجة من البيت بعد أن رأت زوجها .

وكان هنالك شخص آخر يحاول الوصول إلى الأديب دون أن يستطيع ، وهو كاهن تلك الجهة . فأن المحيطين بالأديب حالوا دون دخوله ، ولو تمكن لسمع العالم أن تولستوى مات بعد أن عاد إلى أحضان الكنيسة .

وفى ٥ نوفمبر كان تولستوى لا يكاد يستطيع الكلام فهو يتمتم لابنته : « ان عبئاً كبيراً واقع على سونيا . . . لقد أسأنا الترتيب . . . ويتمتم لابنه : « الحقيقة . . . إنى أحب كثيراً . . . كيف حالهم ؟

وفى اليوم التالى ساءت حالته إلى درجة كبيرة وفقد وعيه ، ولكنه صاح ذات مرة بصوت عال : « لقد جاءت النهاية . . . ولا أنصحكم إلا بنصيحة واحدة . . . إن فى العالم كثيرين غير ليون تولستوى وأنتم لا تعنون إلا به . » .

وما جاء الليل حتى كان فى أسوأ حال ، وفى الساعة الرابعة من صباح اليوم التالى دخل فى دور النزع الأخير ، وعندئذ فقط سمح لزوجته : بأن تراه ، فجثت إلى جانب سريره وأخذت تقبل يده وهى تقول « اغفر لى » فتنهد تولستوى تنهداً عميقاً ، ولكنه ظل فى غشيته إلى أن أسلم النفس الأخير .

أهم الحوادث فى حياة تولستوى

١٨٢٨	مولده فى اسنايا بوليانا (٢٨ أغسطس)
١٨٣٠	وفاة والدته
١٨٣٦	انتقال الأسرة إلى موسكو
١٨٣٧	وفاة والده
١٨٤٠	السفر إلى قازان
١٨٤٤	الالتحاق بجامعة قازان
١٨٤٧	البدء فى تدوين مذكراته
١٨٤٨	مغادرته قازان إلى موسكو
١٨٥١	السفر إلى القوقاز
١٨٥٢	الالتحاق بالخدمة العسكرية
١٨٥٤	النقل إلى جيش الدانوب
١٨٥٥	موقعة سباستبول
	وفاة القيصر نقولا الأول وتولى اسكندر الثانى
١٨٥٧	كتاب الطفولة والشباب
	قصة بوليكوشكا
١٨٦٠	الرحلة الأولى إلى فرنسا وسويسرا
١٨٦١	الرحلة الثانية إلى ألمانيا وفرنسا وانجلترا والبلجيك

قرار الغاء نظام تبعية الفلاحين لصاحب الأرض

١٨٦٢ الزواج

١٨٦٧ قصة الحرب والسلم ، مسرحية ثمار الثقافة

١٨٦٩

١٨٧٠ دراسة اللغة اليونانية

١٨٧٢ وضع كتاب المطالعة

١٨٧٥ قصة انا كرنينا

١٨٧٧

١٨٧٩ كتاب اعترافات

١٨٨١ مقتل القيصر اسكندر الثانى وتولى اسكندر الثالث
السكنى فى موسكو

١٨٨٢ التعداد واشتراكه فيه

١٨٨٣ اتصاله بشيرتكوف — كتاب ماذا يجب أن
نفعل إذن

١٨٨٦ قصة وفاة إيفان إيلتش

١٨٨٨ ولادة النجل الثالث عشر إيفان

١٨٩٠ قصة سوناته كرويتزر

١٨٩١ اعلان رغبته فى التنازل عن حقوق الطبع فى مؤلفاته

١٨٩٤ وفاة القيصر اسكندر الثالث وتولى نقولا الثانى

١٨٩٥ وفاة نجله إيفان

١٨٩٧ نفى شيرتكوف وبيروكوف

١٩٠١ قصة الحاج مراد

حرمانه من الكنيسة

١٩٠٢ نداء إلى رجال الدين

١٩٠٤ فكروا فى أنفسكم ، وفاة أخيه سيرج

بدء الحرب بين اليابان وروسيا

١٩٠٧ عودة شيرتكوف

١٩٠٩ تحريره وصيه

١٩١٠ فرار تولستوى (٢٨ أكتوبر)

وفاته (٧ نوفمبر)






مجموعة مؤلفات تولستوى

الطبعة الروسية أشرف عليها بيروكوف وهى فى ٢٤ مجلداً (موسكو سنة ١٩١٣)

الطبعة الفرنسية ترجمة بينستوك وراجعها بيروكوف على المخطوطات الأصلية (باريس سنة ١٩٠٢)

الطبعة الانجليزية التذكارية ترجمة لويز والمرمود فى ١٨ مجلداً (لندن سنة ١٩٢٨)

مذكرات تولستوى

من سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٨٥٢

ترجمها هوجارث إلى الانجليرية ونشرت بلندن سنة ١٩١٧

ترجمها روستوف وجان دبرى إلى الفرنسية ونشرت فى باريس سنة ١٩٢١

من سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٥٧

ترجمها لويز والمرمود إلى الانجليزية ونشرت بلندن سنة ١٩٢٧

من سنة ١٨٥٢ إلى سنة ١٨٦٣

ترجمها شوزفيل وبوزنر إلى الفرنسية ونشرت بباريس سنة ١٩٢٦

من سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٨٩٩

ترجمها روزسترونزكى إلى الانجليرية ونشرت بنيويورك ١٩١٧
ترجمها روستوف وجان دى بيت إلى الفرنسية ونشرت بباريس سنة ١٩١٠

سنة ١٩١٠

ترجمها إلمر مود تحت اسم النضال الأخير ونشرت بلندن سنة ١٩٣٦

ترجمها شوزفيل إلى الفرنسية ونشرت بباريس سنة ١٩٤٠

مذكرات أعضاء أسرة تولستوى وأصدقائه

مذكرات الكونتيسة تولستوى زوجته ، رسائل تولستوى نفسه ، مذكرات بهرز ، مذكرات الكونت إيليا تولستوى ، الكونتيسة صوفيا تولستوى (تاريخ حياة نفسها) ، كونت ليو تولستوى (الحقيقة عن والدى) ، الكونتيسة الكسندرا تولستوى (مأساة تولستوى) ، كونت سيرج تولستوى (النضال الأخير) ، محادثات وذكريات لمكسيم جوركى وجولدنفايزر وسير جنيكو وبيرجاكوف .

أهم الكتب عن حياته

بيروكوف ، رومان رولان ، نويس ، شيرتكوف ، إلمر مود ، نازاروف ، ديلون .

دراسات

ميريجكوفسكي ، شتبنر ، كروسي ، لافران ، زفايج ، بورشيه ، سواريس .

فهـــرس

مؤلفات الأستاذ أحمد الصاوى محمد

مدرسة النبوغ

ص		
٢٥	التلميذة الخالدة	(حياة مدام كوري)
٢٥	حياة بلزاك	(القصصى الأعظم)
٢٥	حياة شللى	(قبور فى جنة الخلد)
٢٥	حياة بيرون	(دون جوان)
٢٥	عرش وقلب	(لويس الرابع عشر)

مدرسة المجتمع

ص	
٢٠	شباب الفولجا
٢٠	جرائم شرقية وغربية
٢٠	العاصية
٢٠	الموجة العذراء
٢٠	حياة قلب
٢٥	رجال ونساء أول
٢٥	« « ثانى
٢٥	أنا الشرق
٢٥	الشيطان لعبته المرأة

مدرسة السياسة والحرب

ص	
٢٠	مأساة فرنسا
٢٠	أسرار انهيار أوروبا
٢٠	الرقص على البارود
٢٠	الطابور الأول
٢٠	الوحش الأصفر والدب الأحمر

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

روضة الطفل

أول مجموعة من نوعها تقوم على أحدث الأساليب العلمية والفنية ، يجد الطفل فيها قصصاً مشوقة مفيدة مزينة بالصور المبتكرة ومطبوعة بالألوان .

ظهر منها :



أرنبو والكنز

كتكت المدهش

عيد ميلاد فلة

فرفر والجرس



ثمن القصة ٧ قروش

تصدرها

دار المعارف بمصر

بمعاونة

السيدة أمينة السعيد والدكتور يوسف مراد والأستاذ سيد قطب